E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

عفـــــريـــن

أواخر الأربعينيات ـ أوائل الخمسينيات

مشاهد وانطباعات

المؤلف: جمعة عبد القادر

الطبعة الأولى: كانون الأول ٢٠٠٨

عـــدد النـــــسـخ: ١٠٠٠

حقـوق النشـــر محفـوظـة

تنضـــيد وإخـــراج: دار نـــون٤

الغـــلاف: الفنـان رائـد خليـــل

نـون٤ للنشـر والطبـاعة والتوزيـــع

هاتف ٢١٢١٣٣٢ خليوي ٠٩٤٤٨٨٩٠٧٨

بريـد إليكتروني :news@scs-net.org

المنشيـة القديمـة ـ حلـب ـ سوريـة

الهيئة الاستشارية للدار		
	أ. وليد إخلاصي د. فؤاد المرعي أ. جمال باروت	
	د. رضـــوان قضـــماني د. سـعد الـدين كليـب	
	أ. عطيـــة مسّـــوح أ. نـــذير جعفـــر	

عفرين

أواخر الأربعينيات ـ أوائل الخمسينيات

مشاهد وانطباعات

جمعة عبد القادر

عفرين

أواخر الأربعينيات ـ أوائل الخمسينيات

مشاهد وانطباعات

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

إهداء

إلى أصدقائي الذين شجعوني وساعدوني

لإنجاز هذا العمل المتواضع

مقدمة

رغم ابتعادي عنها نصف قرن ونيّف،فقد ظلت هذه المدينة الرائعة محفورة بعمق —في أعماق نفسي ـ بإزميل نحات مبدع. وظلت صورها مرتسمة بدقة على جدران قلبي، متعرشة على كل مساحات مشاعري. كنت وأنا بعيد عنها، أنتظر أسابيع لتصلني وثيقة منها دون أن أرضى أن أنقل أو أمحو اسمي من سجلاتها. وقد شعرت بالفخر والاعتزاز عندما أمعن موظف النفوس مرة النظر في رقم خانتي قائلاً: أنت من سكان عفرين الأوائل.

في كل مرة – وما أكثر المرات ــ وأنا في طريقي إلى عفرين. عندما كانت السيارة تتجاوز اللافتة التي كتب عليها (عرش قيبار) كانت مدينتي تظهر أمامي وجهاً لوجه حسناء جميلة، تتمدد بكل تيه ودلال على امتداد (تل طويل) ، تبرد قدميها الحافيتين في نهر عفرين، وتطل بكل كبرياء على كل السهول والجبال. وترتسم صورة أمي في كل مرة فوق بيوتها وأشجارها، ونهرها. فأقبل عليها كأنني أقبل على أمي. وأعود طفلاً رغم سنواتي المديدة. فأرتمي على صدرها، أتلقّط ثدييها، أرضع من حليبها.

الكتابة عن عفرين، حلم ظل يراودني منذ عشر سنوات: يجب أن أكتب عنها. أن أرد لها الجميل، أن أترك للأجيال القادمة صوراً منها، ومن حياتها. فهي مسقط رأسي، وجنة حياتي. حين ولدت في عفرين عام ١٩٤٢ كان عمرها سبعة عشر عاماً. فاحتضنت طفولتي، وعاشت معي سنوات اللهو والعبث. حبونا معاً طفلين صغيرين.

لن أفصل في جغرافيتها، وموقعها، سأترك ذلك للجغرافيين، ولن أدقق في أحداثها التاريخية، سأدع ذلك للمؤرخين، فقط سأرسم بالكلمات ـ كما يقول نزار قباني ــ صوراً ولوحات ارتسمت منذ نصف قرن في ذاكرتي، دقيقة، حيّة، نابضة كأنها اليوم، سأكتب عن معالمها، وحاراتها، وبيوتها. عن نهرها وجسرها. عن سكانها الرواد الذين ملؤوها بالحياة. عن سياراتها وسائقيها. عن أطفالها وزرعها، وأفكار أهلها. وباختصار عن نبض

الحياة فيها. سأرسمها من ذكريات طفل عاش سنوات طفولته لاهياً في حواريها، وعلى ضفاف نهرها الجميل. تلميذاً في مدرستها حيناً، وصياداً ماهراً في نهرها حيناً آخر. متعلماً في مدرستها الابتدائية الأولى أشهراً، وفلاّحاً صغيراً في الحقل أشهراً أخرى. قد تكون بعض الصور ناقصة ومبهمة.

وقد تكون غير ما رأيتها. ولكنني سأعرضها كما رأيتها أنا بعينيّ.

جمعة عبد القادر

كازية الدهني

سندخل على مهل إلى عفرين. فالسيارات كانت في أواخر الأربعينيات بطيئة جداً. لن نجد حتى وصولنا إلى الجسر إلا بناء واحداً ذا طابق واحد. كل البيوت في ذلك الوقت كانت لا تتجاوز طابقاً واحداً. هذا البناء الوحيد على يسار الطريق الداخل إلى عفرين، كان الكازية الأولى في عفرين كنا نسميها في ذلك الوقت (قز يق خانه)* . محطة الوقود هذه كانت تضخ في شرايين كل سيارات عفرين الوقود اللازم لحركتها. وتملأ كل بوابير البريموس بالكاز. لقد كانت تلك البوابير في تلك الأيام نقلة حضارية من نار الحطب والمداخن، إلى نار المواقد الكازية.

لم يكن المازوت مطلوباً كما اليوم. فلا مدافئ ولا سيارات وقودها المازوت. كان المازوت يستخدم فقط في تغذية الجرارات التي ظهرت حديثاً، و المضخات التي بدأت تروي الأراضي الواسعة.

الكازية الأولى ـ الدهني

لم يكن في الكازية الأولى هذه في البداية، خزانات أرضية، أو مضخات تملأ

---

* قزيق خانة: مكان الكاز (الاسم مأخوذ من الكاز أو القاز).

السيارات مباشرة. بل كان البنـزين أو الكـاز يـوزع في صـفائح معدنيـة تسـع الواحـدة منهـا عشرين ليتراً، كالتي في أيامنا هذه. مـن الصـور الـتي أذكرهـا: عامـل الكازيـة وقـد جلـب صفيحة مليئة بالبنزين، لـيملأ خـزان إحـدى السـيارات. فـتح الصـفيحة بـأداة في نهايتهـا حديدة معقوفة التقطت الغطاء ونزعته. بعد ذلك وضـع قمعـاً كـبيراً معقوفـاً في فوهـة خـزان الوقود، وصب فيه البنزين.

الصفائح الفارغة كانت تسـتخدم في أمـور شـتى، أهمهـا تعبئتهـا بالميـاه ونقلـها إلى البيوت على ظهر الدواب. كذلك كانت تملأ بالزيت والدبس وغير ذلك من المـواد الغذائيـة. وأتذكر ونحن ذاهبون مرة إلى بستاننا الذي يبعد عـن عفـرين قلـيلاً أفـراداً مـن الجنـد رمـة (الدرك) قد صفوا تلك (التنكات) الصفائح الفارغة، وجعلوها درايئ ، وأهدافاً يرمون عليهـا من بنادقهم رصاصاً حياً.

تطورت الكازية خلال زمن قصير فظهرت فيها المضخة الأولى، التي أصـبحت تضـخ البنزين من خزان أرضي. أذكر تماماً تلك المضخة. كان لها في الأعلـى أسـطوانتان بلّوريتـان جميلتان. أما في الوسط وإلى الأسفل قليلاً، فكانت لها ذراع طويلة ترتكز على جسم المضخة. ما إن يحركها العامل يمنة ويسرة حتى يتدفق البنزين إلى الأسطوانة مصـطخباً مالئـاً أعيننـا الطفولية بالدهشة. وحين تمتلئ الأسطوانة الأولى تفرغ، وتبدأ الثانية بالامتلاء لتفرغ بدورها. كل أسطوانة كانت مدرجة بخطوط تحسب اللترات التي تصب فيها، وكانت خمس لـترات أو عشر لا أتذكر بالضبط. هـذا المنظـر كـان يجـذبني، ويجعلـني متعلقـاً ببصـري بالمضـخة والبنزين إلى أن ينتهي العامل من عمله.

بناء تلك الكازية مازال باقياً حتى يومنا هذا، وهو قرب المستوصف الحكومي، ولكنه مهجور مغلق، بقايا دهانها السماوي على جدرانها، يدل على عزها القديم، ودورهـا الرائـع في حياة مدينة عفرين.

الكازية الثانية كانت كازية قضيب البان على بعد قليل من كازية الدهني.

مازال بناؤها المهمل المخرب قائماً حتى الآن عند مفرق طريق باسوطة. عندما أنشئت كازية قضيب البان في الخمسينيات كانت تتباهى على غيرها بمضخاتها التي كانت تعمل على الكهرباء التي بدأت تنتشر في مدينة عفرين.

الكازية الثانية ـ قضيب البان

السيارات

سأنتقل من الكازية إلى السيارات فهذا مناسب. تلك السيارات التي كانت تخب قليلة بطيئة، على طرق عفرين ـ حلب وطرق عفرين وضواحيها ونواحيها. كانت السيارات تعد على الأصابع. معظمها والجديد منها، كان يسير على طريق عفرين ـ حلب. أما الأقدم والأقل عدداً* فعلى طرق بلبل وجند يرس وراجو: النواحي الثلاث في ذلك الوقت*، وكانت هذه السيارات وخاصة القديمة منها لا تتوانى عن تلبية رغبات المسافرين إلى بعض القرى التي تتميز بطرقها الوعرة.

سيارات الركوب هذه، كانت صغيرة (تاكسي)، وكبيرة (بوسطة)، بالإضافة إلى الشاحنات (الكميونات) الصغيرة والكبيرة. وكانت قمة حركتها، وعز عملها وشغلها في أيام

* عدد النواحي الآن في منطقة عفرين ستة: أحدثت ثلاث نواح جديدة هي: شران ومعبطلي وشيخ الحديد.

بازار عفرين (الأربعاء)، أوبا زار راجو (السبت)، أو جند يرس (الاثنين)، أو بلبل (الثلاثاء)

كان لتلك السيارات مقدمات طويلة يرتاح فيها المحرك بأمان، وفوق غطاء (رفراف) كل دولاب ينتصب مصباح مدوّر جميل. سيارات الركوب التاكسي منها والبوسطة. كان على ظهرها مساند ومصاطب معدنية للحمولة. دولاب السيارة الاحتياطي كان يستقر في تجويف أحد الرفرافين الأماميين، أو على ظهر الغطاء الخلفي للباكاج أو داخله. حتى الدولاب كان جميلاً جداً، لم يكن إطاره المعدني الداخلي (الجنط) كتلة واحدة كما هو اليوم بل كان كتلتين معدنيتين: خارجيةً، وداخليةً يتماسكان ببعضهما بأسلاك معدنية (أسياخ) في تشابك ظريف معقد، يشبه في ذلك ما نراه اليوم من إطارات الدراجات الهوائية، أو بعض الدراجات النارية القديمة. وكان لسيارات الركوب عند أسفل الأبواب مساند وأفاريز عريضة ممتدة أفقياً على امتداد البابين من الطرفين، يقف عليها الركاب متمسكين بالنوافذ ولذلك فإن السيارة وخاصة التاكسي كانت أيام الازدحام لا ترى، بل ترى كتلة بشرية متعربشة، ومن الأسفل ترى فقط دواليب تدور على الأرض.

الزمور (المنبه) كم مرحلة قطع!!! وبكم تطوير مر!!! حتى وصل إلى ما نراه عليه اليوم. في الزمن الذي أتحد ث عنه، كان الزمور مفصولاً عن المحرك، لا علاقة له به، بعيداً عنه. كان معلقاً على جسم السيارة على يسار السائق، أعلى النافذة. كان مثل زمور بائعي المازوت على الطنابر والدواب في أيامنا هذه، بوق له فوهة معدنية مخروطية ينتهي في الخلف بانتفاخ مطاطي. و في كل مرة يريد فيها السائق أن ينبه أحداً، يمد يده من النافذة، ويضغط على المنفاخ المطاطي فيصدر الزمور صوتاً طريفاً مضحكاً.

السائقون كانوا لندرتهم يلقبون باسم مهنتهم، محمد الشوفير... عزت الشوفير ويظل هذا الاسم حتى الممات. وحين يشتري أحدهم سيارة حديثة، يصبح حديث عفرين كلها... جبرا اشترى دوسوتو... الشيف حميد اشترى شوفروليه... شيخو قنطارو اشترى غرزلير... ناعوس اشترى ج.م.س كان شكلها وموديلها، ولونها، وسعرها، حديث الناس

أياماً طويلة، وكنا نقول هذه السيارة من الأجانتا مباشرة أي من الوكالة أو كما يقال في يومنا: بشحمها.

أشهر هؤلاء السائقين وأقدمهم على ما أعتقد كان محمد الشوفير، أتذكره جيداً فقد كان جارنا الحيط على الحيط. كان طويلاً نحيلاً متمكناً من مهنته خبيراً بها. حين سافر للمرة الأولى إلى بيروت ظل ليالي كثيرة وطويلة يروي لنا أخبار تلك الرحلة بجاذبية مدهشة، وكأنه ابن بطوطة أو السند باد: البحر على يمينك أما على اليسار فترتفع الجبال بقممها العالية وصخورها المعلقة بالقمم التي تظن في كل لحظة أنها ستهوي فوق سيارتك ورأسك. قيل في سبب وفاته: إن سيارته نفسها تدحرجت (كرّت) إلى الخلف فدهسته

أما أشهر السائقين جنوناً في ذلك الوقت، فقد كان أرمنياً. وكنا نسميه دلي أرتين (أرتين المجنون). كانت سيارته قديمة جداً. أظن أنها كانت تعود إلى ثلاثينيات القرن العشرين. باب الباكاج كان مربوطاً بحبل لكي لا يفتح أثناء السير، أما غطاء المحرك فكان يغلق بقفل كبير. كنا نستمع إلى حكاياته مع سيارته بشغف واهتمام ومرح وضحك. مثلاً حين تتعطل سيارته في مكان ما، يحاول إصلاحها، فإن عجز فإنه يلجأ إلى أقرب الحجارة والصخور فينهال بها على السيارة المسكينة أمام نظرات الركاب المدهوشين..!

معمل العرق (الميخانة)*

قبل دخولي إلى المدينة، سأنحرف يساراً لأسلك طريق باسوطة . على بعد أمتار على يمين الطريق، ينتصب معمل العرق القديم. المعمل الأول في مدينة عفرين. معمل عرق البطة (مثلث، دوز) وصاحبه المشهور بوزانت كيوانيان الذي مازال اسمه واسم مدينة عفرين حتى اليوم ينقشان على زجاجات إنتاجه. ومازال هذا المعمل ينتج العرق حتى يومنا هذا. يقال: كان هناك معمل آخر في عفرين ولكني في طفولتي لم أر سوى هذا المعمل. أما في منطقة

---

*بعضهم يقول: ميرخانة، والصحيح ميخانة أي مكان التخمير.

عفرين وقراها وجبالها فقد كان هناك أكثر من عشرين ميخانة لإنتاج العرق.

معمل عرق البطة ـ بوزانت كيوانيان

كنا نشعر بوجود معمل عفرين ـ حين نمر في تجوالنا الطفولي بقربه ــ من خلال رائحة الكحول واليانسون المنبعثة. وحين نصل إلى المعمل نقف متأملين العمال وهم يدوسون حفاة على العنب الأبيض الذي أفرغه سائقو الكميونات في حوض كبير، ليستحيل بعد الدوس والدعس إلى عصير ينساب إلى المعمل الذي يفعل فعله فيه من عصر وتقطير ليحيله إلى مشروب مسكر معبأ في زجاجات لامعة.

كانت أشجار الزيتون قليلة جداً حول عفرين وفي ريفها في الخمسينيات. كروم الزيتون القديمة القليلة التي أذكرها في طفولتي كانت قبالة قرية (قرة تبّه) و (مشعلة). أما باقي السهول والتلال فكانت مغطاة بكروم العنب، وأشهر عنبها كان العنب الأبيض (الدوكلغان). فمن ذلك العنب كان يستخرج العرق ومنه كان يصنع الدبس والبستيق والسنجق، كان هذا العنب الأبيض يغذي معامل العرق في مناطق عفرين كلها، ويدخل في كل مواد الحلويات التي كنا نتناولها.

في مواسم القطاف، كانت سيارات الكميون (الشاحنات) تنحدر من طريق راجو وقراها بطيئة حاملة ذلك العنب في صناديقها دون سحا حير أو علب (دو غما) إلى معمل العرق فنلحق بها ـ نحن الصغار ـ ونتعلق. والماهر منا يرمي بعناقيد العنب المبللة المعفرة بالتراب لرفاقه في الطريق. نعم قراصنة صغار. أظن أن السائق كان يرانا ونحن نسرقه، ولكنه كان لا يكلف نفسه عناء الوقوف والصياح من أجل بضعة عناقيد معفرة بالتراب.

الجسر

أعود من جديد إلى طريق عفرين، فأصل إلى الجسر. الجسر الحالي جديد. الجسر الذي قضيت معه طفولتي جرفه النهر بعيداً في إحدى ثورات غضبه في شتاء ماطر. كانت أمي تحدثني عن جسر آخر غير جسر طفولتي ذاك، فتقول: إنه كان مغطىً بالحديد وقد نزع عنه الإنكليز في أيام الحرب[٥] حديده وأخذوه ليصنعوا منه السلاح. الجسر الذي عشت معه أياماً سعيدة كان جسراً إسمنتياً يرتكز ـ ماعدا طرفيه ـ على ثلاث قوائم. القائمتان: الغربية والشرقية من الأسمنت أما القائمة الوسطى، فقد كانت مبنية بالحجر الكلسي الصوري. وكان للقائمة الوسطى على طرفيها مصطبتان صغيرتان: شمالية وجنوبية تحت سقف الجسر بقليل، كنا ننزل ـ نحن الصغار ـ إليها بسهولة ويسر ونقضي أوقاتاً ممتعة جالسين هناك وكأن ركيزة الجسر والمصطبة قد بنيتا خصيصاً لجلوسنا. النهر كان يجري من أسفل تلك القائمة. لاشيء يحمينا من السقوط في النهر من ذلك العلو الشاهق. أقل دفعة أو مزحة كانت كافية ليهوي الواحد منا. عندما أتذكر الآن جلساتنا هناك يمتلئ قلبي رعباً وفزعاً.

---

[٥] الجسر القديم المعدني بناه الألمان عام ١٨٩٧.

على الجسر كان رصيفان يعلوان عن الطريق قليلاً، وعلى كل رصيف كانت ترتفع أعمدة إسمنتية مثقوبة بثقوب عديدة، تمر منها قضبان حديدية لتكون سور الجسر الذي يحمي الناس من السقوط. ولكن تلك القضبان أهملت على مر الزمن ، فانثنى بعضها وخلع البعض الآخر. كنا نتلهى بها فندوّرها في ثقوبها يميناً وشمالاً. بين بعض الأعمدة كانت القضبان تختفي تماماً فيظهر النهر أسفل الجسر بعيداً مخيفاً . وقد هوى أحد رفاقنا الصغار واسمه (محمود) مع دراجته من إحدى تلك الفتحات المخيفة، ومن ذلك العلو الشاهق إلى النهر. كان يسير بدراجته ليس على الطريق بل على الرصيف يقود الدراجة بيد، ويأكل خيارة باليد الأخرى. فجأة فقد توازنه فسقط وكان حظه جيداً حين سقط في مكان عميق من النهر. ورغم ذلك فإنه حين أسعف كان الدم يتدفق من فجوة كبيرة في مقدمة رأسه. مازال صديقي ذاك على قيد الحياة، ومازالت آثار تلك الفجوة ظاهرة في مقدمة رأسه.

الجسر ـ رغم حوادثه ـ كان متعة كبيرة جداً لنا ـ نحن الصغار ـ ففي صباحات بعض الأيام التي تتوفر لنا فيها بضعة فرنكات. كنا نشتري بضع أرغفة طازجة من الفرن،

وبضع كعوب من الجبنة، وقاوونة (بطيخة صفراء)، وننزل بهدوء وحذر إلى مصطبة ركيزة الجسر الشمالية، حيث الصباح، وحيث الظل والبرودة فنقضي أوقاتاً هنيئة، دون أن نخاف العلو الشاهق ، ودون أن نخشى السقوط في النهر.

على هذا الجسر كانت المنافسات تحمى بين أبطالنا الأطفال. كانوا يصعدون إلى الجسر ثم يهوون في النهر فيبدون كعصافير طائرة. كان النهر في الطرف الغربي للجسر عميقاً جداً، ولذلك كانت المباريات تجري هناك. لم تكن عندي الجرأة لأكون بين أولئك الأبطال الصغار، كنت أغبطهم في سري، وأتمنى أن أكون شجاعاً مثلهم. أذكر حتى الآن (كوزم فيّو) الناعم القصير، فأعجب به وبصديقيّ الآخرين (شيخو خليل) و (فياض الحموي) يقفزون بكل جرأة إلى النهر مع صرخة مدوية، واضعين أ يديهم بين أفخاذهم حذراً من آلام معينة. هذا المنظر شهدته بعد أكثر من ثلاثين سنة من طفولتي يمثله أبناء قرية ميدا نكي، وهم يقفزون من فوق جسره إلى النهر الذي أصبح الآن في شيخوختي بحيرة عظيمة، أمام قريتهم تملأ أراضي المنطقة بالخير.

المسلخ كان على بعد أمتار قليلة من طرف الجسر الغربي، ومازال حتى الآن. كانت بقايا المسلخ تتجمع في النهر في ذلك المكان نفسه الذي كان هو مسبحنا ومكان المنافسة والقفز من فوق الجسر. وكانت هذه البقايا تجذب الأسماك.

لذلك ففي الأيام الهادئة حيث لا منافسات ولا سباحة وخاصة في الصباح ، كنا نجتاز النهر من الضفة الغربية إلى الضفة الشرقية، خائضين فيه في الأماكن الضحلة، وننصب سنا نيرنا لصيد السمك البني الجميل ذي العنق الملون كعنق الديكة. أما الطُعْم فكان يستخرج من التراب قرب المسلخ حيث كانت جحور ديدان الأرض: الطعام الأطيب للسمك البني. كنا نصطاد أسماكاً كبيرة، يبلغ وزنها أحياناً أكثر من كيلو غرام.

في أيام الصفاء والهدوء، كان الجسر مكاناً جميلاً للنزهة. وخاصة وقت الغروب، حيث نراقب النهر من علِ فنرى الظلال تمتد رويداً رويداً لتحوّل لون النهر الأزرق الصافي، إلى لون داكن. ولون الحشائش على الضفتين إلى خضرة مائلة إلى السواد. فيغيب نهار حاملاً معه ذكريات اليوم من السباحة والقفز واللعب وصيد السمك.

الجسر في الطرف الغربي ـ طرف المدينة ـ كان تحت ركيزته فراغ تحت الطريق وكنا ننظر إلى ذلك الفراغ من خلال شقوق غطائه، وكنا نتباهى بأننا نعرف سر ذلك الفراغ وتلك الفجوة في ركيزة الجسر. كان الكبار قد حدثونا عن ذلك. إنه لوضع الألغام فيه من قبل الإنكليز لمنع عبور أعدائهم عليه.

في أيام الشتاء، عندما كان النهر يفيض. كنا نأتي ونقف فوق الجسر ننظر إلى مياه النهر العكرة الحاملة لتراب كل منطقة عفرين. ونرى النهر وقد تحول إلى وحش كاسر ترتفع مخالبه إلى علو قوائم الجسر، وتكاد تجرف الجسر كله. وقد حدث ذلك فعلاً مرة. فأطاح النهر بجسر طفولتي، وبني عوضاً عنه الجسر الحالي. في أيام الفيضان تلك كانت الأسماك تختنق في المياه الموحلة للنهر، فلا هواء في الماء ولا أوكسجين. كان الناس يضعون أكياس الخيش مفتوحة بعكس اتجاه تيار النهر، فتمتلئ الأكياس بالسمك. كان نهر عفرين في تلك الأيام غنياً بالسمك بكل أنواعه: الأسود أبو الشوارب، والبوري (فمه مدور مثل البوري)، والبني ، والحنقليس (صدت واحدة منها مرة من النهر) حتى السلحفاة النهرية كنا نراها تسبح تحت الجسر في الأيام التي يكون فيها النهر صافياً وهادئاً.

الجسر الذي أتحدث عنه، كان أضيق من الجسر الحالي. واعتقد أن سيارة واحدة فقط، كان بإمكانها أن تمر من فوقه. جنوب الجسر، ومكان الجسر الثاني المقام حالياً على النهر، كان جسراً أرضياً حربياً. في الحقيقة أنه كان معبراً أرضياً حربياً من الأسمنت بني على وجه الأرض تمر مياه النهر من فوقه، لامن تحته. يقال إن الإنكليز هم الذين بنوه وجعلوه امتداداً للطريق الحربي القادم من باسوطة إلى عفرين، لتعبر عليه آلياتهم إذا نسف الجسر الأول. كان ذلك في أيام الحرب العالمية الثانية استعداداً للألمان إذا احتلوا القفقاس وتركيا وزحفوا إلى الشرق الأوسط إلى البترول ومنابع النفط.

أذكر أنني مررت من فوق ذلك المعبر الحربي مرة، بسيارة مدير مال عفرين، حين اصطحبني وأختي في نزهة مع أسرته إلى الباسوطة. كان ذلك في بداية الخمسينيات من

القرن الماضي. بعد زمن بدأ أسمنت ذلك المعبر يتفتت فتكشفت الأسلاك المعدنية التي صب الأسمنت عليها. نحن الصغار فرحنا بذلك لأننا كنا نقطع تلك الأسلاك لنصنع منها سياراتنا الصغيرة وعرباتنا السلكية (من التيل) و كنا نتفنن في صنعها ونتباهى بها، فهذه تكسي وتلك بوسطة، وذلك كميون. لقد كانت من أجمل لعبنا في طفولتنا.

المخفر

كان الطريق من الجسر حتى المخفر مفتوحا على جانبيه، دون أية جدران أو أرصفة على انحدارين شديدين: أحدهما يهبط نحو المسلخ، والثاني إلى بستان واهان . الداخل إلى عفرين كان المسلخ على يمينه، وبستان واهان على يساره. هذا البستان كان يمتلئ بالخضار والمزروعات صيف شتاء. وقبل ظهور المضخات كانت في البستان ناعورة ترفع المياه من النهر لسقاية البستان، كنا نلمح العمال (الفعول) في غد واتنا وروحاتنا، يعملون في ذلك البستان مما يؤكد ذاكرتي ـ أن الطريق كان مفتوحاً من الطرفين على الانحدارين اللذين ذكرتهما ـ صورة سيارة كميون (شاحنة) محملة بصفائح الزيت متدهورة على منحدر بستان واهان، وقد تناثرت الصفائح على الأرض وانسكب الزيت في كل مكان، وما تزال في مخيلتي صورة النسوة الفقيرات وهن يجمعن الزيت المسكوب، من الحفر الصغيرة في المنحدر وفي البستان. قبل المخفر على الطرف الأيمن كان يرتفع جدار عال فيه فتحة كبيرة لتعبر منه السيارات المحملة بالحبوب والقطن وكل شيء من بازار عفرين إلى الطريق العام متجهة إلى حلب . بعد هذا الجدار تصل إلى المخفر الذي كان يرتفع عالياً بطابقيه الاثنين وواجهته العالية المطلة على الجنوب على سهول عفرين وبساتينها، مازال ذلك المخفر نفسه حتى الآن بحجارته الصفراء الصورية القاسية. دخلت هذا المخفر أول مرة، وعمري لا يتجاوز الثامنة . صعدت الدرجات العريضة لأدخل إلى غرفة في الطابق الأرضي، وأشهد شهادة الزور الوحيدة في حياتي. كان صديقي الصغير (شيخو) قد فج رأس أحد أطفال الكر يف*. شهدت أن شيخو كان معي في ذلك اليوم، وأننا لم نكن في عفرين كلها، بل كنا في بستاننا البعيد عن عفرين كيلومترات عدة.

---

* الكر يف: هم الموسيقيون الأكراد من الطبالين والزرنجية (الزما رين)، وكان ينظر إليهم كفئة أدنى في المجتمع.

مدخل عفرين قدوماً من حلب

المخفر

في ذلك السجن قضى المجرمون، والمذنبون في عفرين، وقراها، ونواحيها منذ نشوء عفرين عام ١٩٢٥،سنوات سجنهم وعذابهم متسلّين بصنع جزادين الخرز وغيرها، في تمضية أيامهم الطويلة. من الحوادث التي أذكرها عن ذلك السجن والتي رويت في تلك

الأيام، أن أحد السجناء رمى بنفسه من نافذة في الطابق الثاني واستطاع أن يفر. أما الصورة الأخرى من السجن فكانت لأحد أقربائنا المحكومين، واسمه (طاهر) حيث زارنا في بيتنا في عفرين في يوم البازار على ما أذكر. حيث كان المخفر يسمح لذوي السلوك الحسن من السجناء أو لمن خفت سنوات حكمه، بزيارة الأهل أو الأقارب، ثم العودة إلى السجن.

كان والدي يقول: إن عفرين بنيت عام ١٩٢٥. إذن كان ذلك زمن الانتداب الفرنسي. لقد خُطّطت شوارعها بانتظام على طريقة المدن الفرنسية: الطريقة الشطر نجية. يقال إن الفرنسيين اعتمدوا تلك الطريقة في بناء مدنهم للقضاء على ثورات المدن التي كانت تنشب كثيراً في بلادهم . وكان أبي يقول أيضاً: إن الأبنية الأولى التي بنيت، كانت السجن، والسراي (دار الحكومة)، والمدرسة الابتدائية، ودار القائم مقام، والحديقة العامة. أما البازار فقد بني وأقيم بعد ذلك بسنتين أي في عام ١٩٢٧ وكان المسؤولون في عفرين يأتون في كل يوم أربعاء (وهو اليوم الذي حدد لإقامة البازار) بفرقة من الكر يف، تنفخ في الزرنايات وتقرع الطبول وتجول في أرجاء المدينة والبازار تشجيعاً للناس للقدوم إلى ذلك السوق الريفي.

أعود إلى المخفر من جديد لأذكر أن الخيول هي التي كانت تقف أمام المخفر بدل السيارات الحالية، فقد كان الحصان سيارة الجند رمة* في ذلك الحين. مازال المخفر على حاله، لم يتغير شيء من شكله الخارجي. أما الداخل فلا أدري شيئاً عنه ، لأنني لم أدخله والحمد لله.

مقابل المخفر، على الطرف الثاني من الطريق ـ من الجسر حتى قهوة (مقهى واهان) ـ لم تكن ثمّة أي دكاكين. الدكاكين الأولى بنيت في أوائل الخمسينيات مقابل السجن تماماً وبقي الطريق مكشوفاً من الطرفين حتى الجسر. حيث بني مركز الانطلاق بطرف السجن وبنيت الدكاكين في الطرف الآخر في التسعينيات.

---

*الجند رمة: الدرك سابقاً، الشرطة حالياً.

المقاهي

قهوة واهان كان المقهى الأشهر في عفرين، حيث كان يجلس، ويجتمع فيه كل وجهاء المنطقة وآغواتها وأكابرها لعقد صفقاتهم التجارية، أو حبك خططهم السياسية، أو الانتخابية، أو الاجتماعية، أو قضاء أوقاتهم في شرب الشاي أو القهوة، أو لعب الورق. قهوة واهان كانت تطل من طرفها الشمالي، على الساحة العامة في عفرين. الساحة التي تشرف على الطرق الذاهبة إلى حلب، وراجو، وجند يرس. وتطل من طرفها الجنوبي والشرقي على بستان واهان.

موقع مقهى واهان ـ أمام المخفر ـ حالياً دكاكين

حين وصل الراديو إلى عفرين، كان واهان من الأوائل الذين اقتنوه، ولكي يسمع كل الناس صوت ذلك الراديو، فقد علق ميكروفوناً على واجهة المقهى الأمامية الشمالية، ليقوم بدور الإذاعة لمدينة عفرين. من ذلك المذياع سمعت أنا وصديقي الصغير في صبيحة يوم من أيام عام ١٩٤٩ نبأ مقتل الزعيم حسني الزعيم. ومن المصادفات الغريبة أن صديقي الصغير قبل سماع النبأ بلحظات، كان يقول لي: ماذا سيحدث لو مات حسني الزعيم؟ أعتقد أن

بعض أعماله في تلك الفترة القصيرة التي حكم فيها، هي التي أعطت شخصيته تلك الشهرة التي جعلت طفلاً صغيراً يتحدث عنه.

من المقاهي الأخرى المشهورة في عفرين في ذلك الزمن، كانت قهوة (تختي) وكانت تسمى بذلك الاسم، لأن جدرانها كانت من صفائح الخشب والتنك. كانت في الطابق الثاني، فوق الدكاكين الأولى، على الطرف الأيمن من بداية الطريق الذاهب إلى جند يرس. فقد كان التقاطع الأساسي لطرق عفرين، يقع أمام مقهى واهان حيث تتعامد الطرقات شرقاً إلى حلب، وشمالاً إلى راجو وميدان أكبس، وجنوباً إلى بستان واهان والنهر والمعبر الحربي على نهر عفرين، وغرباً إلى جند يرس. وأمام المقهى كان موقف (كراج) سيارات التاكسي الذاهبة إلى حلب.

المقهى الثاني ـ قهوة تختي

قهوة التختي كانت مشهورة بالقمار (الميسر) الذي كان داءً مستعصياً في منطقة عفرين كلها: المدينة، الأرياف، المقاهي، البيوت، الدكاكين وبخاصة في القرى. إن الأمراض الاجتماعية القاتلة في ذلك الزمان، كانت القمار والخمر والقتل والنساء، الثلاثة الأولى في المنطقة.

أما الأخيرة، فكان الموسرون يجدونهن في كباريهات (ملاهي) حلب التي كانت تعج بهم وبهن.

المقهى الثالث الذي أذكره، كان يبعد عن مقهى التختي قليلاً: شارعين أو أكثر على الطرف نفسه، ولكن على الزاوية حيث ينفتح على الشارع الرئيسي والفرعي. ولكنه كان الأحدث من بين الثلاثة، وكان يعج بالزبائن. كنا نحن الصغار نتحدث فيما بيننا كيف أن هذه المقاهي تقدم كل المشروبات العادية من شاي وقهوة وغيرها مجاناً لزبائنها لاعبي القمار. كنا رغم كل شيء نغبط الزبائن، على تلك المشروبات المجانية التي كنا لا نستطيع الحصول عليها. طبعا كان ذلك لاشيء مقابل الأرباح التي كان يجنيها أصحاب المقاهي من اللاعبين. المقهى كان دائماً الرابح الأكبر حيث ينال حصته من كل ربح. أما الخاسرون فكانوا دائماً اللاعبين. في المرات القليلة التي كان ينفتح فيها باب المقهى، أثناء مرورنا من هناك. كان دخان السجائر الكثيف يمنع أعيننا من رؤية من بداخل المقهى.

المقهى الثالث ـ حالياً دكاكين

ذكر لي صديقي فياض الحموي إنه كان هناك مقهى رابع مقابل المقهى الثالث على الطرف الآخر من شارع جنديرس.

بائع البوظ (الثلج)

غرب مقهى واهان على الطرف الآخر من الطريق النازل إلى النهر كان بائع البوظ. كان باب دكانه يتجه نحو الشرق نحو قهوة واهان. هذا الدكان كان يجلب بوظه من المعمل الموجود في الطاحونة على طريق جند يرس " سآتي بالتفصيل على ذكر تلك الطاحونة "

في أيام الصيف الحارة كان ذلك المحل يفعل فعله في إطفاء غلة الناس من الحرارة والقيظ. فقبل غروب الشمس وفي عودة المواطنين إلى بيوتهم وخاصة في شهر رمضان، كانت الفرنكات تمتد إلى (ابن المصري)، ليقطع بالمنشار قطعة من الثلج من لوح الثلج الكبير، ثم بطريقة عجيبة يقطع خيطاً ويلفه حول قطعة البوظ في حيّز حفره منشاره أما من يشتري بفرنكين، فهذا دليل على أن ضيوفاً قد قصدوا بيته.

الكهرباء لم تدخل عفرين إلا في عام ١٩٥١ إذن لا برادات في عفرين ولا أية أداة كهر بائية إلا ما كان منها يعمل على البطارية كالراديو. الماء كان في جرار منتصبة على كراسي خشبية صغيرة يرشح الماء من تلك الجرار إلى طاسة موضوعة في أسفل الجرة. يتبخر الماء المرشح من الجرة حول الجرة فيبرد الماء بداخلها. على فوهة الجرة يوضع غطاء من الخشب، وفوقه طاسة للشرب (ذرك).

أما المراوح، فكانت النوافذ الغربية التي كانت لا تخلو منها دار في عفرين، حيث تنفتح البيوت غرباً على السهل الممتد من عفرين حتى (معراته)، هذا السهل الحامل للهواء المنعش النقي. الثياب لم تكن تكوى، ولم نكن نرى المكواة إلا عند الموسرين. كانت المكواة معدنية ثقيلة يوضع الفحم في داخلها، وتكوى بها الثياب بعد أن تبلل. ولها غطاء معدني ثقيل يفتح ليوضع فيه الفحم. كم كنا نفرح بتلك المكواة حين نستعيرها من الجيران ونكوي بها ثيابنا البسيطة.

أذكر أن والدي الذي ترك الخدمة في الجيش، في أوائل الخمسينيات، لم يكن يلبس الشر وال بل كان يلبس البنطال. وحين يريد أن يلبسه مكوياً، كان يبخّه بالماء مساء ويطويه

حسب ما يرغب، ثم يضعه تحت الفراش الذي ينام عليه. فإذا هو مكوي في الصباح.

طر يق جنه يرس

أقصر الطرق من عفرين إلى لواء أسكندرون. إذ يبلغ طوله نحو ثلاثين كم . وهو يتجه من عفرين باتجاه الحدود التركية غرباً بشكل مستقيم تقريباً. هذا الشارع كان يتفرع داخل عفرين، إلى خمس شوارع فرعية جنوبية، وخمسة شمالية. كل شارع لا يضم أكثر من دارين أو ثلاثة في كل جانب. الجنوبية كانت تنتهي في الأراضي الزراعية جنوب الطريق وجنوب عفرين. أما الشوارع الفرعية الشمالية، المقابلة تماماً للجنوبية. فقد كانت كذلك لا تضم أكثر من دارين أو ثلاثة في كل جانب، و كانت تنتهي إلى الأرض السهلية التي كانت تملأ فضاء مدينة عفرين، إلى أرض (جعفر) كما كنا نسميها. حدودها الشمالية المنتهية إلى أرض جعفر كانت الشارع الحالي الذي يمتد من أمام البريد شرقا وغرباً. من أشهر العائلات التي كانت تسكن في تلك الحارات: عائلة مصطفى عل طيري، الحاج خلف، عز الدين، مصطفى نوري (كانت داره فيلا قائمة بذاتها).

طريق جنديرس

ذكرت سابقاً بعض الأماكن في شارع جند يرس مثل قحوي تختي (المقهى الخشبي) والمقهى الثالث وسأستعرض فيما يلي أهم الأماكن التي أتذكرها بادئاً في ذكرياتي من بداية الشارع منتهياً إلى نهايته.

دكان أحمد عجم

كان من أشهر الدكاكين في عفرين، وكان ممتلئاً بكل أنواع البضائع. أي حاجة لا تجدها في الدكاكين الأخرى، أو في عفرين كلها، كنت تجدها عنده. كان دكانه أول دكان في شارع جند يرس في الطرف الأيمن، وكان مفتوحاً على اتجاهين: الشرق والجنوب. إن صورته لا تفارق مخيلتي: بسمته الدائمة، وصوته الهادئ اللطيف، وتلبيته السريعة لكل شيء تحتاجه. إن أهم ما أتذكره عنه هو تلك المعاملة اللطيفة لنا نحن الأطفال.

دكان الزاوية ـ دكان أحمد عجم سابقاً

دكان حمو مجيد

وكان مخصصاً لبيع كل أنواع خراطيش الصيد، وما يحتاجه الصيادون لأسلحتهم،

أو ما يحتاجه كل من يحمل سلاحاً، من رصاص وغير ذلك. أذكر أننا – ونحن صغار – اشترينا (ديناميت) مواد متفجرة، وفتيل، وكبسون (صاعق) من هذه الدكان، وذلك لصيد السمك. أستغرب الآن كيف كان يبيع مثل هذه المتفجرات لأطفال صغار.؟ أين الأهل؟ وأين الدولة؟ هذا الدكان كان مجاوراً لدكان أحمد عجم.

الفرن

وكان يقع بعد دكان أحمد عجم على الطرف الأيمن نفسه في شارع جند يرس. كان في عفرين عدة أفران ولكن هذا الفرن، كان الأشهر، والأعظم من بين أفران عفرين، وأعتقد أنه كان الأول في جودة خبزه. خبزه كان رائعاً، العجان كان أخرس ولكنه كان مرحاً إلى أقصى حدود المرح. فكثيراً ما كان يمازحنا محاولاً أن يرمينا بقرص عجين، أو يرفع العجنة كلها بيديه ويقربها إلى وجوهنا. من الطريف أن ذلك العجان الأخرس تزوج فتاة خرساء، وقد رزقا بأطفال سليمين. وكنت أرى الأسرة، وهي تعيش في غرفة واحدة تشبه الدكان وكانوا قريبين من دارنا.

كنا نحن الصغار نشتهي رغيف ذلك الفرن. فكل سكان عفرين بل المنطقة كلها كانت تأكل خبز السيل (الساج) الرقيق رقة الورق. خبز الساج لم يكن مرغوباً ولم يكن مشتهى. فهو بدون خميرة وهو أقرب للعجين منه للخبز الناضج . في أيام قليلة من السنة حين يقصدنا ضيوف، أو حين نشتهي الخبز المخمّر، كنا نشتري خميرة من الفرن . و تمزج تلك الخميرة بعجين الحنطة السمراء ليتخمر ثم نأخذه للفرن، ليخرج أرغفة سمراء سميكة، لا تضاهي أبداً أرغفة الفرن البيضاء فهذه من طحين أبيض وتلك من طحين أسمر الرغيف الذي كان يصنع في الفرن، كان أشهب اللون، موشحاً بحبات البركة، وكان العامل الذي يصفّ تلك الأرغفة على البسطة، يدهن كل رغيف بفرشاة يغمسها في إناء مليء بذائب النشاء. وحين يبرد الرغيف يبدو لامعاً صقيلاً، تشتهيه الأعين والنفوس والبطون.

كازوز ستيم وبوظة ضبيط

هذا المعمل أو المصنع الصغير، كان يقع بعد الفرن، وبعد محل مجيد حمو مباشرة. كان دكاناً كبيراً مقسماً إلى قسمين: أمامي، وكانت توضع فيه صناديق الكازوز التي كانت ترتفع إلى الأعلى متوضعة بعضها فوق بعض، ملونة بألوان كثيرة، منها البرتقالي ، ومنها الليموني، ومنها البني، ومنها الأبيض. ولكنها كلها كانت تحمل ماركة واحدة، هي (ستيم) أكثر الألوان التي كنا نحبها، كان البرتقالي، لأنه كان قريباً من الأحمر – اللون المحبوب عند جميع الأطفال – كان الكازوز في الخمسينيات في عفرين قفزة حضارية في عالم المشروبات. وكان ذلك بعد أن دخلت الكهرباء إلى عفرين. وأصبحت البرادات تحتل ركناً أساسياً من أركان المطبخ العفر يني، بل ركناً في ذهن المرأة العفرينية. قبل الكازوز كان الشراب الذي يحضّر في البيت، أو من قبل بائعي الشراب الذي كانوا يبيعونه متجولين على عربات صغيرة. يصبون قليلاً من الشراب في الكأس، ثم يحرك بالماء، ويضاف إليه بشْر من البوظ حيث كان كل بائع يضع لوحاً من البوظ ومبشرة معدنية لبشره، ومزجه بالماء والشراب. الكازوز أخذ ينافس كؤوس الشراب فهو ضيافة ما بعدها ضيافة. والبرادات أخذت تقضي رويداً رويداً على ما كان يحفظ فيه الطعام من نملية أو شعيرية أوسبت*، وبدأ دور البوظ أو الثلج الذي كان يصنع في طاحونة النار، ينحسر قليلاً قليلاً فما حاجة من يملك البراد إلى البوظ. حتى البائعون المتجولون الذين كانوا يبيعون الشراب ، أخذوا يبيعون إلى جانبه الكازوز الذي كانوا يصنعونه على عرباتهم في أجهزة ضغط حديثة. فما أن يفتح صنبور الجهاز حتى تمتلئ الكأس بالكازوز السائل الطيب ذي الرغوة والفقاعات الساحرة. أذكر أننا كنا نشتري أحياناً مسحوق الكازوز، أو بودرته من عند السمان، فنضع قليلاً منها في أفواهنا فتمتلئ بالرغوة والطعم اللذيذ. مازلنا في القسم الأمامي من المعمل الصغير. كان هناك إلى جانب صناديق الكازوز عدة برادات، يحتفظ فيها البائع بالبوظة بنوعيها:

---

* النملية أو الشعيرية: خزانة خشبية كانت توضع فيها الأطعمة لمنع الحشرات من الاقتراب منها.

* السَبَت: قفة كبيرة تصنع من قشور الخشب توضع مقلوبة فوق أواني الأطعمة ليلاً لحفظها وتبريدها في أرض الدار.

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

المجمدة بشكل مستطيل والمغلفة بالورق والتي تحمل كلها ماركة واحدة (ضبيط) أو البوظة المجمدة العادية الموضوعة ضمن تنكات (صفائح). البوظة بكل ألوانها: الحليب، الشوكولا، وغير ذلك. أما في القسم الخلفي من المعمل فكنت لا ترى إلا الحلل والقدور الكبيرة والصغيرة. هنا كان المعمل وكان الإنتاج. من هذا المعمل الصغير كانت توزع البوظة بكل أنواعها، والكازوز بكل ألوانه ، على كل أنحاء عفرين. لم يكن لهذا المعمل من منافس إلا في أيام البازار (الأربعاء) حيث كانت ترد أنواع البوظة والكازوز من حلب: المدينة الكبيرة.

بائع اللبن

بائع اللبن كان من بيت الحموي، دكانه يقع على الطرف الأيسر من شارع جند يرس. كان مختصاً ببيع اللبن فقط. اللبن كان يباع في أيام البازار. لكن عند الحموي كان يباع يومياً. كل ما تشتهيه نفسك من أطايب اللبن الغنمي أو البقري، كنت تجده عند الحموي. كان اللبن الذي يبيعه معبّأً في علب خشبية أسطوانية محكمة بإطارات خشبية أيضاً. وكانت تلك العلب منداة دائماً بما كان يرشح من ماء اللبن. حيث كان الخشب يمتص من اللبن رائقه الحامض باستمرار، ليبقى لذيذاً مشتهى. في أوقات الراحة من المدرسة، بعد عناء الدروس، كان زميلنا فياض بن الحموي ينوب عن أبيه في البيع فنقصد المكان لا لنشتري بل لنتسلى معاً، ونتباهى أمام الزبائن، بأننا أصدقاء البائع

صائغ الذهب (نوريك)

الصائغ الأول في عفرين. كان محله مليئاً بالذهب الأصفر اللامع، الذي كان يبهر الأبصار . وكان جل نشاطه يتبدى في أيام الأربعاء حيث بازار عفرين. أما في الأيام الأخرى فكان نشاطه متوقفاً على من يجهّزون لعروسهم الذهب والثياب، فيمتلئ المحل بحشد كبير من أهل العريس والعروس، يضيق بهم الدكان فيفيضون إلى الشارع. لازالت هذه الأسرة ملتصقة بعفرين حتى يومنا هذا، ولازال أولاد نوريك يزاولون مهنتهم في عفرين، وقد اشتهروا بأولاد نوريك.

البريد

دائرة البريد الأولى في عفرين، كانت تشغل الطابق الأول من بناء قديم يقع في زاوية الشارع الفرعي الثالث اليساري، في منتصف شارع جند يرس تقريباً. لم تكن عفرين كلها تملك حينها إلا بضعة تليفونات. لم تكن الهواتف إلا في الدوائر الحكومية، وعند المسؤولين الحكوميين، والآغوات، والموسرين. وكان الهاتف يدوياً. كان عليك أن تدير ذراعاً صغيرة عدة دورات، ليرد عليك عامل المقسم (السنترال) حيث يسحب فِيَشَه المتصلة بحبال، من ثقب إلى ثقب في حركة سريعة تدعو للدهشة والعجب. وكنا نسمع صوته بعد وضع الفيش قائلاً لطالب الخط: احكِ. بعدها بسنوات طويلة، أصبح الهاتف نصف آلي. ترفع السماعة فيرد عليك عامل المقسم ليعطيك الرقم الذي تطلبه. ثم أصبح على ما نراه اليوم.

بريد عفرين سابقاً ـ الطابق العلوي

الفندق

كان يقع على الطرف الأيمن من شارع جند يرس مقابل البريد ولكن قبله بشارع*، لم أدخل ذلك الفندق، ولا أدري ما عدد غرفه، ولكن أعرف أن بعض المسافرين الأغراب كانوا يبيتون فيه. إن العادات الريفية الغليظة أحياناً، كانت لا ترضى بالمبيت في الفندق أو النزْل إذا كان هناك قريب أو صديق في المدينة التي ينزلون فيها. حتى لو كان ذلك في مدينة حلب التي كانت تضم في ذلك الوقت العديد من الفنادق. لم تكن بيوت الأقرباء والأصدقاء فنادق ومضافات فقط. بل مشافي وعيادات المرضى كذلك.

موقع الفندق الأول

* ذكر لي صديقي سيدو محمد إنه كان في عفرين في أواخر الأربعينيات، فندق على طريق راجو تملكه امرأة أرمنية وكان غرفة واحدة، وذكر لي صديقي فياض الحموي أنه كان هناك فندقان آخران على اليسار من طريق جنديرس.

دائرة الريجي*

إلى الغرب من الفندق وفي آخر شارع فرعي يميني في طريق جند يرس كانت دائرة الريجي حيث كان القولجيون* يراقبون إنتاج التبغ في منطقة عفرين، ويضبطون المهرّب منه وكان كثيراً. أما التبغ المزروع والمصنوع فقد كانت قرى (الجومة) المتناثرة على طريق غزاوية ـ جند يرس، تمتلئ به، وكانت غرف التخمير والتنشيف تملأ جوانب الطرق في تلك القرى. الكثير الكثير من ذلك التبغ كان يستهلك محلياً، حيث كان ذلك التبغ السوري الأشقر البديع (البرليب) يفرم بموسى حادة من قبل المدخنين ويعبأ في العلب المعدنية الفاخرة التي كانوا يتباهون بها ويتهادونها كشيء ثمين. في كل علبة دفتر صغير من ورق الشام (دفتر الشام) الذي كان يحتوي على وريقات عديدة رقيقة ناعمة، يلف بها ذلك التبغ لتتحول إلى سيكارة ممتعة في فم مدخنها.

المصور ودّو

أول مصور معروف في عفرين، أو لنقل أول أستوديو تصوير، إن صح التعبير، تعلم المهنة من مصورين أرمن من عفرين. كان المحل في الشارع اليميني الفرعي الثالث. اتجاهه نحو الشرق. ملاصقاً لدكان أبيه (محمد كوشكار)* فقد كان أبوه مصلح أحذية. كان ودّو الأشقر يخرج ماكينته نهاراً خارج الأستوديو ليصور زبائنه. أما خلفية الصور فكان جدار دكانه الحجري الذي كان يرخي عليه ستاراً سميكاً أسود. هذا إذا كانت الصورة للهوية، أو لدائرة حكومية. أما إذا كانت الصورة خاصة أو للذكرى، فكان يرخي على الجدار أمام كاميرته ستارة قماشية فيها صور طريفة لطواويس، وأزهار، وحيوانات أما ماكينته (آلة التصوير)، فكانت خشبية تستند إلى ثلاث ركائز، لها من الأمام عدسة مصورة، أما من

---

* الريجي: إدارة حصر التبغ والتنباك حالياً.

* القولجي: موظف وخفير في دائرة التبغ والتنباك.

* الكوشكار: الحذاء.

الخلف فكان لها قماش أسود يشبه السروال، يخبئ ودّو رأسه فيه ليرى الصورة بشكل جيد. وبعد أن ينتظم كل شيء، يعطي إشارة الخطر: التصوير سيبدأ. ويبدأ بالعد...١-٢-٣ ثم يضغط زراً ما فينتهي التصوير. وما كان أشد حزنه حين يتحرك أحد في لحظة الخطر فتذهب المسودة هباء وخسارة.

مرة واحدة تصورت عند ودّو كانت الصورة مع أختي التي تكبرني. أما أين اختفت تلك الصورة، فلا أدري؟ لو وجدت لكانت أطرف صورةً.

كان أخي متطوعاً في الجيش، بعيداً عنا يستعد لخوض حرب فلسطين. والظاهر أنه اشتاق لنا فطلب أن أتصور أنا وأختي على عجل، لأن رفيقه العسكري الذي سنرسل الصورة معه ستنتهي إجازته قريباً. على عجل أخذت أمي تهيئنا للتصوير. كان الوقت صيفاً. وبما أنني مثل معظم أطفال عفرين أسير حافي القدمين. لا ألبس حذاء إلا في العيد. ولا يستر جسمي إلا ثوبٌ (قمباز)، فقد طلبت أمي من الجيران الأقارب إعارتنا حذاء، لكي لا أتصور وأنا حافي القدمين. ولكن الأقارب بخلوا فأعارونا جزمة مطاطية شتوية. وكان ابن القريب أكبر مني سناً وجسماً. فوصلت حافة الجزمة إلى حافة القمباز. وقد أعطاني ودّو مسدساً خشبياً أمسكته بيدي اليمنى ووجهته باتجاه أختي. كانت الصورة طريفة حقاً. مازال ودّو المهني الرائع يزاول مهنته حتى يومنا هذا. هو لم يتغير ولكن دكانه وماكيناته تغيرت.

كان هناك مصورون آخرون ولكن من دون محلات أذكر منهم (رفعت) الذي كان يضع على رأسه طربوشاً أحمر، أتذكر قامته الطويلة النحيلة. ماكينته كانت تشبه ماكينة ودّو. أتذكر كيف كان يلوّن الصور قليلاً بعد التحميض بلون أحمر، ثم يعلقها على سنّادة خشبية أمام عين الكاميرا ليحولها من مبيّضة إلى مسوّدة. ثم بعد خروج المبيضة يعالجها في محلول أبيض خاص لا لون له كالماء، فتظهر الصورة الحقيقية رويداً رويداً، ويظهر صاحب الصورة بكل دقة وتفصيل ، أمام دهشتنا وعيوننا الحائرة. ولكي تنشف تلك الصور كان رفعت يعلقها على لوحة خشبية معلقة على الجدار، أي جدار كان.

أرتين القلانجي

محله كان في الشارع الفرعي الثالث، على يسار طريق جند يرس، واجهة محله باتجاه الشرق مقابل دائرة البريد. أرتين كان أرمنياً. معظم المهن في عفرين كانت من نصيب الأرمن. أمام المحل كانت تنتصب عدة دراجات هوائية قديمة، عفا عليها الزمن. معظمها ليس لها فرينات (كوابح) أو أجراس أو غيرها. كان الأطفال الذين يستأجرون هذه الدراجات يستخدمون أقدامهم فيضعونها أمام الدولاب الخلفي، لكبح جماحها وإيقافها. كان أرتين يؤجر هذه الدراجات إلى جانب عمله مبيّضاً. كان محله من الداخل كبيراً معتماً. لا تكاد من العتمة تتبيّن الأواني النحاسية التي يبيّضها. في ذلك الزمان كل الأواني المعدنية كانت من النحاس. بعد ذلك بسنوات كثيرة، كانت قفزة الألمنيوم

كان المبيّض (القلانجي) ذا دور كبير في حياة المدينة والناس. كانت الأواني تصفّ بالدور لتبييضها وذلك بسبب الازدحام. لذلك كان أرتين مدللاً.

في زاوية مظلمة من دكانه، كانت هناك عتبة لها حواف مرتفعة قليلاً يضع أجيره فيها الأواني الكبيرة النحاسية، وما كان أكثرها، ولا أدري ماذا كان يضع أرتين لأجيره في تلك الحفرة، يمكن أن يكون بعض الرماد والرمل. كان الأجير يستند بيديه إلى الحائط، ويبدأ بفرك رجليه بتلك المواد، في تلك الأواني، وهو يدير مؤخرته تارة إلى اليمين وتارة إلى الشمال في حركة دائبة مضحكة، كثيرا ما كنا نقوم بمثلها مقلدين هذا الأجير أثناء لعبنا ومرحنا . فإذا تبين لأرتين أنها قد نظفت تماماً من كل الشوائب التي قد علقت بها أخذها فغسلها، ثم التقطها بملقط كبير و عرضها على نار متأججة بفعل هواء الكور الذي يحرك أجير آخر مقبضيه الخشبيتين بشكل دائم، ليندفع فيه الهواء قوياً . ثم عاملها بالقصدير الذي يمسكه ببعض القطن. يمرر القصدير على الإناء المحمي فيذوب بياضه على النحاس، وتظهر نتيجة جهد أرتين وفنه حين تبدو تلك الأواني النحاسية بيضاء لامعة فتانة كأنها مرآة.

شاهين النجار

عند دكانه كانت ترتمي البيوت الأخيرة لمدينة عفرين على طريق جند يرس . كان دكانه الأخير في الطرف اليساري من طريق جند يرس. كان النجار المشهور . أمام باب دكانه كانت ترتمي الأدوات الزراعية. فمن يد خشبية لمحراث، أو دولاب عربة خشبية، أو فؤوس ورفو ش، أو رفوف منزلية. وكان لشهرته يدعى شاهين النجار. مازال الدكان قائماً حتى يومنا هذا ولكن المهنة تغيرت.

طاحونة النار

حين بنيت هذه الطاحونة، كانت بعيدة عن عفرين. وحين كنا نقصدها، نشعر كأننا ذاهبون إلى قرية من قرى عفرين (كرسانة أو ترندة). كان البناء المنفرد الوحيد القائم على يسار طريق جند يرس . بناه أصحابه بيت عليوي من إعزاز. بناء مربع ضخم كبير عال، له باب كبير منخفض عن الطريق العام، مبتعد عنه قليلاً منفتح برحابة باتجاه الشمال. بناء فريد بحجمه في ذلك الوقت.

طاحونة النار ـ حالياً معصرة زيتون

هذه الطاحونة عندما بدأت بالعمل، كانت بالنسبة لنا، لسكان عفرين نقلة حضارية. فقد كان الناس يطحنون قمحهم بطواحين الماء. حيث يتدفق الماء سريعاً على عنفات تدير حجر الرحى. ولكن الفلاحين كانوا محكومين بالطحن في أيام الشتاء وأوائل الربيع فقط. حيث تحول المياه بعد ذلك للري فتقف الطواحين عن العمل. كان الناس يسمون الطواحين القديمة (آشي آڤي)، أي الطاحونة المائية، لذلك فقد سمّوا هذه الطاحونة الجديدة، الطاحونة النارية (آشي آري) ، لأن محركها كان نارياً، يعمل على وقود المازوت، ويدور دون ماء، أو عنفات. بل بدواليب معدنية، وقشط تدير ماكينات وماكينات. وحين يود العامل أن يدير آلة جديدة، يكتفي بوضع القشاط على دولابه فتدور الآلة.

كانت طاحونة العجائب، فقد كان فيها مولد ينير المطحنة كلها بالكهرباء، فتبدو في الليل جبلاً من النور، يسطع في وسط الظلمة من بعيد. أثناء زياراتنا للمطحنة كنا نتعجب من منظر المصباح الكهربائي متوقداً دون كاز، أو فتيل، أو شحوار وسخام. وحين كنا نعثر على مصباح محروق مرمي على الأرض، تمتلئ قلوبنا دهشة ونحن نتأمل شكله الغريب: بللورته، أسلاكه الداخلية الرفيعة جداً في شكلها الهندسي المنظم، (سوكته) النحاسية العجيبة التي تثبت على الحائط ثم المفتاح، ضغطة عليه، فإذا المصباح متوهج، كنا نأخذ تلك المصابيح المستهلكة إلى البيت فنزيل أجزاءها الداخلية، فتغدو مثل زجاجة رقيقة شفافة فارغة، يملؤها الأهل بالماء ويضعون فيها زرعة خضراء ، ثم يعلقونها على الحائط. وحين تمد النبتة الصغيرة جذورها في الماء، داخل ذلك البللور الشفاف، وتمتد بأوراقها الخضراء إلى الأعلى تغدو منظراً رائعاً مريحاً للأنظار.

لم يكن ذلك الطاحون يتوانى عن طحن ما تشتهيه من الحبوب كالقمح والعدس لتستحيل في مدة يسيرة إلى طحين وبرغل ناعم وخشن وعدس. كانت الحمير تصطف بأحمالها أمام باب الطاحون منتظرة دورها. أما إذا كانت الكمية صغيرة فإن النسوة كن يحملنها على رؤوسهن ويتقاطرن إلى المطحنة متمهلات متحدثات. أما نحن الصغار فكنا

نذهب مع الأهل، لا للمساعدة بل للفرجة. كانت تلك الآلات تدوّخ عقولنا الطفلية كانت عقولنا تدهش من الطاحونة المائية فما بالك بهذه الطاحونة العجيبة

معمل البوظ (الثلج) كان في الطاحونة أيضاً. وكنا نرى في استطلاعاتنا داخل المطحنة المياه وهي ضمن علب مستطيلة معدنية مغمورة في الملح. تبدأ المياه رويداً رويداً بالتجمد متحولة من لا لون إلى لون الثلج الأبيض (البوظ). أليس هذا التحول من ماء إلى جامد، شيئاً مدهشاً لعقولنا نحن – أطفال عفرين – المدينة القرية قبل خمسين عاماً.

في ختام جولات عصاباتنا الصغيرة، كنا نكمل سعادتنا بالسباحة في بركة خلفية مليئة بالماء. كانت البركة مبنية خارج المطحنة على جدارها الخلفي الجنوبي، ويظهر أنها كانت لتبريد الماء الساخن الخارج من تلك الماكينات النارية. لقد كان معملاً حقيقياً في ذلك الزمان.

مازال بناء الطاحون قائماً على طريق جند يرس كما كان. ولكن تلك الجلبة والبشر والدواب قد ذهبوا، الباب مغلق فهي الآن معصرة... وينون..؟ وينون...؟ بابن مسكر ... والعشب غطى الدرب...

آلاف البشر من أهالي عفرين وقراها، قصدوا هذا الصرح العظيم، ليملؤوا خزائن قوتهم بالطحين والبرغل والعدس، وقد كان قوتهم الرئيسي ومازال.

القصابون

كانت حوانيتهم تتوزع على يمين طريق جند يرس ويساره من بدايته وحتى قبل نهايته. كل حانوت كان مجهزا بمدخنة ومكان لشوي اللحم، وبضع طاولات وكراسي. واحدة من هذه الحوانيت كان لها سقيفة يصعد إليها الزبائن ليتناولوا شواءهم. في الأيام العادية كان هؤلاء بائعي لحم وقصابين فقط. أما في يوم الأربعاء (يوم البازار) فلم يكن هؤلاء القصابون يهتمون ببيع اللحم بقدر شويه لزبائنهم من الريفيين الذين كانوا يؤمون عفرين في ذلك اليوم ليقضوا أكثر من حاجة وعمل. في يوم البازار كانت تلك الحوانيت تمتلئ بالزبائن. وأما شارع جند يرس فكان يمتلئ بالدخان الأبيض، ويعبق برائحة الشواء واللحم

لا أتذكر من أسماء هؤلاء القصابين إلا اسم محمد سرخوش، وكان طويل القامة أشقر وسيماً رغم بلوغه الخمسين من عمره. كان من الذين رحلوا من حلب واستقروا في عفرين. التقيت بابنه في أواسط الستينيات، وكان قد تخرج طبيباً جراحاً. مازحني، فقال: لا حظ أننا لم نغير المهنة. والدي كان قصاباً، وأنا أصبحت جراحاً.

دكان صبري بطال

في الخمسينيات لم يكن لعفرين، المدينة الصغيرة، سوق هال. بضع دكاكين متوزعة على يسار شارع جند يرس ويمينه، كانت تستقبل في الصباح الباكر، أو في ساعات بعد الظهر، أولئك الفلاحين القادمين من القرى، والضواحي القريبة . مع دوابهم المحملة بكل ما أنتجوه من خضار وفواكه. أما القرى البعيدة فكانت السيارات القليلة تتكفل بنقل تلك المنتجات الزراعية، كان لا يأتي إلى عفرين إلا ما يكفيها. أما الكثير الكثير فكان يشحن بالسيارات إلى حلب.

من أصحاب الدكاكين تلك المسوّقة للخضار وغيرها، أتذكر صبري بطال. كان دكانه في شارع جند يرس، بعد منتصفه على اليسار. كان قصيراً، نحيلاً كثير النشاط والحركة. يلبس الشر وال دائماً وينتعل حذاء أسود، وجاكيتاً تحته صدارة (جيليت). كان من قرية باسوطة. ولذلك فإن معظم أهالي باسوطة كانوا يحطون برحال خضرواتهم وفواكههم عنده.

كراج جند يرس

قبل نهاية شارع جند يرس، على الطرف الأيمن، كانت تصطف عدة سيارات صغيرة، تنتظر أن يأتيها الدور لتنقل الركاب إلى جند يرس. هنا كان كراج جند يرس. أما في يوم الاثنين، فكانت طريق جند يرس، تمتلئ بأنواع عديدة من السيارات، غادية رائحة حاملة كل شيء من بشر ودواب، وخضار وفواكه، وأطعمة وأقمشة، إلى جند يرس . إنه يوم البازار.

طريق راجو

هذا الطريق كان أطول من طريق عفرين ـ جند يرس، الذي لم يكن طوله يتجاوز الثلاثين كيلومترا. أما هذا الطريق فكان أكثر من خمسين كيلومتراً. كان يبدأ من عفرين، ويمر براجو لينتهي في ميدان أكبس، حيث نقطة الحدود السورية التركية التي يُعْبَر منها إلى تركيا بالقطار فقط.

لننطلق في هذا الطريق، بادئين من نقطة التلاقي التي ذكرناها، أمام مقهى واهان. يمين الطريق كان مفتوحاً حيث أشجار الصنوبر التي كانت تملأ الفسحة الجميلة المنظمة أمام السراي (دار الحكومة)، وغربي السجن. وكانت أفياؤها، وظلالها ملجأً لنا ولكل الهاربين من الحر وخاصة في أيام البازار القائظة. سأترك يمين الطريق الآن على أن أعود إليه، وأبدأ بيسار الطريق.

طريق راجو

دكان محمود حميد آغا

من أشهر بائعي القماش. كان محل محمود حميد آغا. على يسار طريق راجو، بعد واجهة دكان أحمد عجم، التي كانت تنفتح على الشارعين كما ذكرت سابقاً. ما زلت أذكره بنشاطه وحيويته، وكأنه ماثل أمامي الآن (رحمه الله). كان معروفاً في عفرين

ونواحيها جميعاً. معظم أولاده الشباب ورثوا منه تلك الحيوية والنشاط. كان يلبس الشر وال والجاكيت دائماً. أما على رأسه فكانت طاقية يلف عليها شالاً. مازلت أتمثل أمامي بضائعه وهي تُنزل من ظهر السيارة بعد عودته من بازار راجو أو بلبل، أو جند يرس. أما في بازار عفرين فكان محمود حميد آغا المجلّي* والمشهور. حتى في الأيام العادية كان محله يمتلئ بالزبائن الذين يجهّزون للعرس فيأخذون ما يحتاجون من قماش للعروس أو خلع*. للمدعوين. مازالت حركته النشيطة وهو يقيس القماش بالذراع المعدني، ثم يقص ويلف القماش بسرعة عجائبية، ماثلة أمام ناظريّ.

الخان

كان بعد دكان محمود حميد آغا مباشرة. لم يكن من الخانات الواسعة. والظاهر أنه بني مع بناء مدينة عفرين حين كان الدواب الوسيلة الأكثر استخداماً من السيارات. الخان كان قد تحول إلى كراج للسيارات الكبيرة البوسطة، التي كانت تحمل المسافرين من عفرين إلى حلب. من أشهر مالكي السيارات الكبيرة التي كانت تسير على خط حلب ـ عفرين كان بيت أبو زكي وكانوا من حلب.

الخان الأول سابقاً ـ كراج عفرين لاحقاً ـ مهجور حالياً

* المجلي: السابق من الخيل والأول منها

* الخلع: الهدايا التي كانت تهدى إلى المدعوين في الأعراس، حيث تقابل بهدايا للعروس والعريس.

الجليلاني

دكانه مجاور للخان تماماً. كان حلبياً، أعتقد أنه كان من بيت قضيب البان. كان يصنع الجِليلات (البردعة) للحمير، وكانت تلك مهنة رائجة، شائعة في ذلك الوقت لكثرة الحمير ولكثرة استخدامها. وكنا نسمي الجِلال الكرتان والجليلاتي الكورتانجي. وكنت أراه وهو يملأ الجِلالة بالقش، ثم يخيطها بخيطان متينة ويشدها شداً محكماً. كان الكرتان أكثر سماكة من السرج، وأقل كلفة وثمناً فالسرج من الجلد، وهذا من القماش والقش، وبعض الجلد الرخيص. كان هؤلاء الجليلاتيون يتفننون بصنعتهم ويشتهرون بها، ولهم زبائنهم الخاصون مثل زبائن سروج الخيل.

الدراجات الهوائية

نحو الشمال قليلاً كان محل قصاب مشهور، لا أتذكر اسمه. كان صديقاي الصغيران الأخوان حسن وحسين يعملان أجيرين عنده، ولذلك كان أهلي لا يشترون اللحم إلا من عنده كرمى لي.

إلى الأعلى قليلاً كان محل أشهر مصلح ومؤجر دراجات في عفرين. كان من بيت الطحان، حلبي، اسمه عبد السلام. كان لبيت الطحان دكانان: الدكان الأول يعمل فيه والد عبد السلام وكان حذاء. وما أكثر مصلحي الأحذية في ذلك الزمان. الحياة بسيطة والفقر كبير. أما الدكان الآخر، فكانت فيه الدراجات الجميلة، التي تختلف اختلافاً كبيراً عن دراجات المعلم أرتين، التي ليس لها أي شيء سوى الدولابين اللّذين تسير عليها والمقود. كان عبد السلام يتفنن في تزيين دراجاته، ولا يشتريها من حلب إلا جديدة من الوكالة. معظم شباب عفرين الذين كانوا يملكون دراجات هوائية، كانت لهم علاقات وطيدة مع عبد السلام وأخيه ووالده. مرة ركّب عبد السلام عداداً (كيلومتراجاً) على دراجته وكان يتباهى بأنه أوصل سرعة دراجته إلى سرعة السيارة (٦٠ كم في الساعة)

مصلحو الأحذية

على الرصيف المقابل لدكان بيت الطحان، كان يجلس بعض مصلحي الأحذية. كان عددهم قليلاً في الأيام العادية، ونشاطهم أقل. أما في يوم البازار بازار عفرين فكانوا يملؤون الرصيف هم وزبائنهم. معظم الأحذية التي كانوا يصلّحونها كانت من نوع (السول). يأتي بها الفلاحون ومن يحرثون الأرض من القرى والأرياف في يوم البازار لإصلاحها. تلك الأحذية كانت تصنع يدوياً ومحلياً من قبل أولئك الحذائين، لفلاحي القرى، وخصيصاً لمن يحرثون الأرض بالدواب والمحراث الروما ني القديم، حيث لم تكن الجرارات معروفة بعد إلا قليلاً.

هؤلاء الحذاؤون ، كانوا يأتون بأطر السيارات البالية فيقشرون مطاطها ويجعلونها نعالاً لتلك الأحذية، نعالاً مطاطية سميكة جداً. أما من الأعلى فقد كان لها عنق طويل من الجلد البقري الحقيقي مناسب تماماً للأرض والتراب والطين. كان (السول) (بوطاً) طريفاً بكل مافي الكلمة من معنى الطرافة.

العرضحالجية*

أعود من جديد، إلى الرصيف المقابل، إلى طرف دكان بيت الطحان. على هذا الصف الذي كان يقع غرب السراي، كانت تتوضع معظم دكاكين مسيري المعاملات. هذه الدكاكين كانت تمتلئ بالناس والمراجعين أيام البازار. أشهر هؤلاء كان العرضحالجي صادق. ولشهرته سببان:

السبب الأول: إتقانه لعمله، وإبداعه فيه، ومعرفته الجيدة بالقوانين وأصولها. وأستطيع أن أقول إنه كان يفوق بخبرته أمهر المحامين. وقد أنقذني بخبرته من ورطة قضائية، لم يستطع محام صديق أن يخلصني منها. فقد بُلّغت خطأً لتشابه في الاسم، بحكم

---

* لم يكن المشمع قد عرف بعد.

* العرضحالجية: مسيرو المعاملات.

يقتضي حبسي عشرة أيام، وتغريمي ثلاثمئة ليرة. عدة لقاءات لصديقي المحامي بالقاضي لم تنفع. في لقاء واحد لصادق مع القاضي، جعله يكتب على الإضبارة: بلّغ خطأً، يعاد التبليغ. وانتهت المشكلة.

إن مهارته تلك، جعلت زبائنه لا يحصون، وأغدقت عليه الأموال. فأصبح من مالكي العقارات والأراضي، بعد أن كان لا يملك شروى نقير.

السبب الثاني: الحكم حكم الإقطاع في الخمسينيات . فائق آغا (رحمه الله) من مشاهير النواب في البرلمان عن منطقة عفرين ومن وجهاء المنطقة كلها. يدخل فائق آغا إلى أحد المقاصف في كفر جنة، فيقوم الجميع له احتراماً وتقديراً، إلا صادق. وقد كان ذلك مقصوداً، فقد كان صادق شيوعياً في ذلك الوقت، وكان الصراع على أشده في المنطقة بين الشيوعيين والآغوات. يرد فائق آغا على ما اعتبره إهانة له، فيصفع صادق، ويرد صادق عليه بكلام قاس. تنتشر القصة في المنطقة كلها: المدينة والقرى. صادق الإنسان الفقير، لا يقف احتراماً لفائق آغا ويرد عليه بكلام قاس. هذه القصة جعلت له شهرة كبيرة، ودرت عليه عطف كل الجماهير الفلاحية الفقيرة. ولذلك كان مكتبه مكتظاً بالمراجعين في أيام البازار وغير البازار. صادق هذا كان ودوداً وخدوماً. وفي كثير من الأحيان، ينهي معاملة ما مجاناً لأحد الفقراء.

بائع الطوابع

محله يقع شمالاً بعد مكتب صادق بعدة دكاكين. لافتة عريضة كانت تتوج محله، يلمع فوقها اسما (مصطفى جمو ـ عبد الكريم مصطفى). كان بائع الطوابع الوحيد في عفرين، ومازال. بمجرد ذكرك للمعاملة، تكون الطوابع المناسبة قد هُيئت، وبُيّن سعرها، وأين ستوضع وتلصق. أحياناً يبين لنا خطأ الموظف الذي طلب الطوابع، في عددها أوقيمتها. إنها خبرة السنين الطويلة التي قضاها في بيع الطوابع. منذ أن وعيت وأنا أرى عبد الكريم مصطفى على الأخص واقفاً أو غاديا ورائحاً يبيع الطوابع. الطوابع التي تطلبها

كانت توضع ضمن ورقة وترفق بشرح شفوي مفصل عن أماكن وضعها ولصقها. لم يكن بـائع طوابع بل صيدلانياً يشرح وصفاته لمرضاه، وكان استقبالهما لنا هو وشريكه أبو عبـد الكـريم دائماً بوجـهين بشوشين.

كراج راجو

عنـد دكـان العجيلـي بعـد دكـان بـائع الطوابـع ، ،كانـت تنتهـي حـدود السـوق والدكاكين، على طريق راجو في نهاية الأربعينيات في عفرين. هذه الـدكاكين كانـت تشـكل الشريط البنائي الوحيد على الطرف الغربي للطريق تلك. هذا الامتـداد مـن الـدكاكين، كـان ينفتح بشارعين فرعيين من طريق راجو العام نحو الغرب على الأرض الفلاة. أرض جعفر أو أرض مدام سولا. الشارع الفرعي الأول كان ينفتح غرباً عند زاوية دكان بيت الطحـان . أمـا الشارع الفرعي الثاني فكان يتفرع غرباً عند زاوية دكان (علي عجيلي). مقابـل هـذا الشـارع على الطرف المقابل كان شارع ضيق يمتد شرقاً خلف جـدار السـراي الشـمالي ليفصـل بـين السراي والحديقة العامة ويصل إلى أرض البازار.

الخان الثاني سابقاً ـ كراج راجو لاحقاً

بعد دكان العجيلي، وبعد الشارع الفرعي الذاهب إلى الغرب، كانت الأرض ترتفع قليلاً، حيث نجد الخان الثاني في عفرين، وهو أكبر من الخان الأول كان يستخدم لتخزين الحبوب أحياناً، وأحياناً أخرى كراجاً للسيارات الذاهبة إلى كتخ وراجو وميدان أكبس. مرة واحدة استخدم مسرحاً، فقد حضرت فرقة مسرحية من حلب، ومثلت مسرحية ما. لا أتذكر ماهي، ولكني أتذكر تماماً أن أحد الممثلين كان ذا أنف كبير، قد تآكل جزء منه بسبب مرض أو شيء آخر.

بيت القائم مقام وقد هدم حالياً

أمام باب هذا الخان، كانت تنتصب شاخصة حجرية، محفور عليها بخط أسود: ميدان أكبس ٥١ كم باللغة العربية والأجنبية. وأمام باب هذا الخان على الطريق الإسفلتي، كانت تقف السيارات المنطلقة إلى راجو وكتخ. ولا تزال صيحات إيحو جندو في أذني وكان ألثغ: يالله تتخ راجو... تتخ راجو. مقابل الخان على الطرف الآخر كانت الحديقة العامة التي مازالت حتى الآن.

مكتبة صبحي بكر

صف الدكاكين التي امتدت من الخان شمالاً حتى المستوصف، مواجهة بيت قائم مقام (مدير منطقة) عفرين القديم بنيت في أوائل الخمسينيات. أكثرها كان يمتلئ بالأقمشة، ومن أشهر تجار الأقمشة كان (حج بلو) و (خل مجكو). ولكن الأشهر من بين هذه المحلات بالنسبة لنا نحن التلاميذ في الخمسينيات كان مكتبة صبحي بكر . كانت مكتبة مليئة بكل ما تشتهيه نفوس التلاميذ. كان آخر دكان في ذلك الصف الجديد من الدكاكين. كان يستقبل التلاميذ الخارجين من المدرسة الوحيدة في عفرين حينذاك بوجه بشوش دائماً وكلام لطيف . كانت مكتبة جميلة حقاً.

المستوصف الحكومي (الخستاخانه)

في أواخر الأربعينيات بني أول مرفق صحي في عفرين، المستوصف أو الخستا خانه كما كنا نسميه (تشغله الآن دائرة حكومية) . وقد كان إنجازاً عظيماً في ذلك الوقت. كان طبيب معين من قبل الدولة يداوم فيه كل يوم بضع ساعات ، أما باقي ساعات الدوام فكان

المرض المشهور (جمعة) ومساعده (شيخو) هما اللذان يقومان فيه بعمل الطبيب . جميعنا أبناء عفرين الأوائل، لُقّحنا في هذا المستوصف ضد الجدري ولا أنسى ــ وإن مر على ذلك خمسون سنة ونيّف ـ حين قشط شيخو جلد يدي بشيء ما، ثم قطر على الجرح بضع قطرات من محلول ما. وكنا نعلم أنه إذاقاوم الجسم فستنشأ للجرح قشرة تجف مع الأيام وتزول وهذا هو المطلوب. أما إذا لم يحدث فعلينا التلقيح مرة ثانية. المدخل الأمامي والغرف الأمامية لم تكن تخيفنا، وإن كنا نرى أحياناً على رف من رفوفها أفعى محنطة في محلول في إناء زجاجي أو نوخز فيها أحياناً أخرى بإبرة من شيخو أو جمعة.

القسم الخلفي من المستوصف، هو الذي كان يخيفنا. فالأموات والقتلى كانوا يمددون هناك ويشرّحون لمعرفة سبب الموت، أو آثار الجريمة التي أدت إلى القتل. كان ذلك يشكل هاجساً لنا – نحن الصغار ـ في أحلام لياليا العفرينية. من الصور التي مازالت عالقة بذهني عن ذلك المستوصف، صورة أرمني غرق في مياه نهر عفرين في ميدانكي. أحضروه في سيارة تكسي إلى المستوصف لإسعافه، ولكنه كان قد فارق الحياة. تجمعنا أطفالاً كثراً حول السيارة نتأمل ذلك الغريق. نظرت إليه ملياً، أول مرة أرى فيها إنساناً ميتاً. كان يظهر من ملامحه كأنه نائم نوماً عميقاً. صورته ظلت مرتسمة في خيالي ولياليّ فترة طويلة، فقد كان الميت الأول الذي أقابله وجهاً لوجه.

أمنة وعكاش ومدام سولا

خلف الدكاكين تلك وخلف المستوصف، في أرض جعفر وفي تلك الفلاة الواسعة قريباً من الدكاكين، كان بيت (مدام سولا). كان صغيراً ولكنه كان فيللا جميلة مبنية بحجارة منحوتة ولها صالون وبضع غرف. لم ألحظ مدام سولا في تلك الفيلّا إلا نادراً، فقد كانت تسكن في حلب، وفي المرات القليلة التي رأيتها فيها كانت عجوزاً مسنة.

بالقرب من الفيلّا كان بيت عكاش وأمنة (آمنة). وكان غرفة واحدة فقط. وأعتقد أنها كانت لمدام سولا، فقد كان عكاش وأمنة يقومان بخدمة مدام سولا حين تحضر إلى عفرين، وحين تذهب يحرسان الفيلّا ويقومان بتنظيفها. أذكر أنه كان لأمنة وعكاش أولاد

كثر: صبيان وبنات، وكانت الأسرة كلها محشورة في تلك الغرفة الوحيدة. أما المطبخ فكان كوخاً صغيراًمبنياً بشكل عشوائي إلى جانب الغرفة الوحيدة. كان عكاش مسبّع الكارات كما يقال ، يعمل في كل شيء، ويبدع في كل شيء، ولا يتوانى عن أي عمل، حتى لو كان ذلك العمل إفراغ جورة فنية صحية ولكن مهنة عكاش الأساسية كانت التكليس. كان عكاش كلاّساً يطرش البيوت بالكلس فيحيلها إلى أضواء وجنات باهرة. لم يكن لدار عكاش سور يحميها، ولكن أمنة وعكاش سوّراها بالورد. ورغم ندرة الماء، وغلاء نقلها وجلبها، وعكاش رجل فقير، فقد كانت هذه الورود والأشجار العديدة التي كانت ترتفع أمام داره، تسقى بالماء كل يوم. كانت داره تبدو من بعيد واحة خضراء في أرض جعفر. كانا كريمين جداً جداً . لم يكن شيء أحب إلى قلب أمي من شرب القهوة صباحاً في دار أمنة. عندما كنت أرافق أمي لشرب القهوة عندهما، كانا يجودان علي بأطيب ماعندهما من طعام. أتذكره تماماً ببذلته الخاكيةوطاقيته (البيريه) السوداء المدورة التي كان لها استطالة (ذنب) قصيرة في وسطها، وسيجارته التي كانت لاتفارق شفتيه. قهوة عكاش وأمنة كانت من أطيب القهوات، كما كانت تذكر أمي. كثير من الجيران القريبن كانوا يستمتعون في بيتهماتحت ظل الأشجار ووسط رائحة الورود بطعم قهوتهما وتنجيم أمنة في الفنجان.

في أواسط الخمسينيات، بدأت الدكاكين تمتد على طول الطرف الغربي من طريق راجو، ولن أستطيع وصف ذلك العمران والتوسع، لأني كنت قد غادرت عفرين نهائياً.

السراي

دار الحكومة ومركز الدولة، ومقر القائم مقام والقضاة ومسؤولي الزراعة والصناعة والنفوس، وكل ما يخص أبناء عفرين من أمور ومشاكل. لم يتغير شيء في بنائها، الغرف والممرات والنوافذ والأبواب بقيت كما كانت حتى الآن. الدرج فقط تغير، فقد كان كلسياً رخواً تآكل فغيّر. أشهر القضاة كان قاضي الصلح، وكثيراً ما كان القضاة يخرجون من دوائرهم بعد الدوام للكشف عن أماكن منازعات وأراض مختلف عليها. وهنا في السراي

كانت تحفظ سجلاتنا نحن ـ سكان عفرين الأوائل ـ الذين تركوا قراهم وجاؤوا ليعمروا المدينة الوليدة عفرين.

السراي

القصص التي أتذكرها عن السراي، هي مع الأسف قصص محزنة . إنها قصص القتل الذي كان يتم، حين يجلبون المتهم من السجن للسراي لمحاكمته، حيث يترصده غريمه الذي لم تشف المحكمة غليله، فيرديه قتيلاً أمام باب السراي، ثم يهرب، أو يسلّم نفسه مزهواً بقوته وعظمته وأنه نال حقه بيديه. أحياناً كانت تتم أعمال أخف من القتل. أبناء من عشيرة المدعين تنتظر أمام باب السراي حضور المتهم، وحين يصل، تهجم عليه، وعلى أقاربه ومن يدافع عنه، وتنهال عليهم ضرباً. فيتحول الثأر إلى ثارات والقضية إلى قضايا

البئر

سأستمر صعودا في طريق راجو. لو كان الصباح الذي أصعد فيه صباح يوم أربعاء، لكنت فتحت طريقي بصعوبة، فمئات الأشخاص من نساء ورجال وأطفال، كانوا ينحدرون إلى عفرين من كل القرى، وعلى ظهر كل أنواع الدواب من حمير وبغال وخيول. قليل جداً

من السيارات كانت تسلك الطريق أيضاً في ذلك اليوم.

عند أول منعطف في ذلك الطريق. قبالة قرية زيديّة* (المحمودية الآن) في الطرف الآخر من الطريق. كان هناك بئر ماءعند فوهتها سطل (قادوس) مربوط بحبل ليشرب منها القادمون إلى البازار والرائحون منه. ولتشرب منها القرية الصغيرة التي كانت مؤلفة من بضعة أكواخ كنا نسميها (الزنج). يمكن أن تكون التسمية نسبة إلى الزنوج. وكان يسكن تلك القرية، أسر من عشيرة العميرات ، الفقراء منهم خاصة. هذه البئر امتنع الناس عن شرب مائها فترة. فقد انتشرت شائعة تقول: إن كلباً ميتاً قد ألقي فيه، ولم يشربوا منها إلا بعد أن متحوا منها عشرات القواديس، وذلك حتى يتخلصوامن النجاسة. على فوهة البئر كانت بعض الحجارة المرصوفة، ولم يكن للبئر بكرة أومنصب عليه بكرة ، بل كانت الماء تمتح مباشرة بالحبل والقادوس.

شجرات العناب

قبل الوصول إلى البئر، في طريق العودة من البازار، كانت بضع شجرات من العناب، تنتصب قرب البئر تزين الأرض بخضرتها، وتزين قلوب العشاق ـ رغم أشواكها ـ بأساطيرها وخيالاتها. واحدة من تلك الشجرات كانت مليئة بشرائط الخرق الملونة التي عقدت حول أغصانها الصغيرة. فقد سرت شائعة تقول: إن الفتاة التي تعقد شريطتها على تلك الشجرة، وتعود إليها في البازار الثاني أو الثالث، فتراها على حالها معقودة فإن فألها حسن، ونصيبها من الحب والزواج، سيكون وافراً وكبيراً.

أما نحن الصغار فقد كانت الشجرات تسعدنا، وخاصة في موسم الإثمار، حيث تمتلئ بحبات العناب الحمراء اللذيذة التي كنا نملأ منها جيوبنا وبطوننا ، دون أن نمس تلك العقد الخرقية. فقد كانت لها قدسية معينة في نفوسنا، فهي عقد الأمنيات والآمال.

---

* زيديّة: نسبة للشيخ زيدي الذي ينتصب مزاره في أعلى بقعة من تل طويل.

موقع شجرات العناب والبئر مقابل زيدية حالياً

أرض جعفر

لماذا أرض جعفر؟ ولماذا كنا نسميها بهذا الاسم ؟ أحدهم واسمه جعفر قد ضمن تلك الأرض من مدام سولا، . هذه الأرض كانت تنسحب أمام نواظر أبناء عفرين إلى الأفق البعيد، و في الربيع كانت تتحول إلى بساط أخضر جميل، يمتد من غرب طريق راجو، حتى تلال معراته. فالقمح كان زرع تلك الأرض وموسمه في معظم السنوات. كما كانت ـ وهذا ما كان يزعجنا نحن الأطفال ـ مكبّاً لمحتويات الجور الفنية، فكثيراً ما كانت تُنغّص جولاتنا في حقل القمح الكبير حين تنغرس أقدامنا في تلك البقايا القذرة.

بعد موسم القمح، كا ن ذلك البساط الأخضر، يتحول إلى أرض مقفرة، تذروها الرياح، فتملأ بيوت عفرين بالغبار والأتربة . أحياناً في مناسبات معينة كالأعراس مثلاً، كان يجري فيها (الجريد) حيث يتبارى الفرسان على ظهور خيولهم بألعاب السباق وغيرها. أتذكر أحد الأعراس التي جرى فيها مثل ذلك.

الثكنة الإنكليزية

سأستمر في صعودي وتوجهي في طريق راجو. المنعطف الأول كان نحو اليسار، وكان فيه البئر وشجر العناب، أما المنعطف الثاني فكان نحو اليمين، وبعدها يستقيم الطريق باتجاه راجو. في هذا المنعطف، وعلى الطرف الشرقي من الطريق كانت بقايا الثكنة الإنكليزية. في الخمسينيات لم يكن باقياً من تلك الثكنة إلا أربع براميل ماء، كانت منتصبة على أعمدة عالية لا أتذكر هل كانت تلك الأعمدة إسمنتية أم معدنية. وفي أسفل هذا الخزان الصناعي كانت بئر ماء، عليها مضخة كانت تشغّل في بعض الأحيان، ولها قسا طل صغيرة وصنبور ماء، كثيراً ما كنا نشرب منه في جولاتنا الطفولية الملحمية في بطاح عفرين وسهولها وتلالها. مازالت ـ حتى الآن ـ بعض الآثار البسيطة التي تشير إلى وجود تلك الثكنة. لقد وصل الإنكليز إلى عفرين، وإلى حدود تركيا. فقد كانت بريطانيا تظن ضمن استراتيجيتها الحربية أن تركيا يمكن أن تنحاز إلى الألمان، وأن الألمان يمكن أن يصلوا بعد اجتياحهم للاتحاد السوفييتي عبر القفقاس إلى تركيا وإلى تلك الأرجاء.

موقع الثكنة الإنكليزية ـ لم يبق منها شيء

لقد بنى الإنكليز مطار منّغ، وتلك الثكنة التي تحدثت عنها، والمعبر الحربي على نهر عفرين، ومدوا طريق باسوطة والغزاوية ودير سمعان تحسباً لأي هجوم جارف من قبل الألمان. كثيراً ما كان الكبار يقولون لنا – نحن الصغار ـ عن طريق باسوطة: إنه الطريق الحربي للإنكليز.

قرية زيدية

سأقف عند الثكنة الإنكليزية، لأن حدود مدينتي تنتهي هنا. وسأعود أدراجي لقرية زيدية والتل الذي خلفها. وهو الامتداد الغربي لتل طويل. في أوائل الخمسينيات من القرن الماضي (العشرين)، لم تكن تلك التلة الغربية مشجرة بأشجار الصنوبر كما هي الآن ولم تكن تلك الغابة الجميلة تغطي رأس التل. في الحنية التي يلتقي بها تل طويل بقسمه الغربي، ومقابل البئر وشجرات العناب التي وصفتها كانت تتناثر على السفح بضع أكواخ كانت تسمى زيدية. سكان تلك الأكواخ كانوا من الفقراء الذين ليس لديهم القدرة لبناء بيوت حجرية كما في عفرين المدينة. لذلك بنوا تلك الأكواخ البائسة. الكوخ حتى منتصفه كان يتكون من حيطان من حجارة مرصوفة حتى ارتفاع متر تقريباً، أما القسم العلوي والسقف، فكان يبنى من القصب الذي يجلب من ضفاف النهر،وكان ذلك القصب يربط و يمد ويفرش على أعمدة خشبية منصوبة بشكل جملوني، مستندة على الجدار البسيط في الأسفل، متلاقية في الأعلى في السقف على عمود أفقي. كانوا يسكنون تلك الأكواخ هم ودوابهم. الدواب في طرف وسكان الكوخ في طرف آخر . كانت الدابة تشارك السكان أكواخهم سواء أكانت بقرة أم حماراً أم بغلاً. هذا عدا الحيوانات الأخرى الأليفة كالكلاب والهررة. معظم سكان هذه الأكواخ التي كنا ندعوها (زنج) كما أسلفت، كانوا يكسبون رزقهم من العمل أجراء في الحقول. أتذكر كالحالم أننا سكنّا مرة في كوخ من تلك الأكواخ، ولكن في قرية تل طويل، وكان عندنا بقرة وحمار يسكنان الطرف الآخر من الكوخ. أما لماذا سكنا في ذلك الكوخ ونحن نملك أرضاً وبستاناً. فإني لا أدري.

في أعلى تل الزيدية أوتل طويل، كان مزار (الشيخ زيدي). وحول المزار كانت تنتشر بعض القبور التي أوصى أصحابها أن يدفنوافيها قرب مزار الشيخ زيدي.

المقابر

مكان المدرسة الريفية الحالية، كانت مقابر مدينة عفرين. وكانت القبور الإسلامية تنتصب جنوب القبور المسيحية لايفصلها عنها أي فاصل. القبور المسيحية كانت معظمها إن لم أقل كلها للأرمن. فمسيحيو عفرين كانوا جلهم من الأرمن.

القبور المسيحية، كانت في الأعلى إلى جهة الشرق. أما القبور الإسلامية، فكانت في الأسفل إلى جهة الغرب وأقرب إلى طريق راجو. مازالت صور الصلبان الحجرية الكلسية التي كانت تعلو تلك القبور شاخصة أمامي. كنا نتداول فيما بيننا بعض الأحاديث التي تروى عن الأرمن والتي مفادها أنهم يدفنون بعض موتاهم مع ما يملكون من مال أو ذهب، فترتسم في مخيلتنا الطفلية صور خيالية عن كنوزمدفونة في تلك القبور تحت التراب. نصف القبور كانت للأرمن ، وذاك دليل واضح على كثرتهم في مدينة عفرين.

موقع مقابر عفرين ـ المدرسة الريفية لاحقاً
مدرسة ابتدائية حالياً

عفرين

جنوب تلك القبور بعشرات الأمتار، كانت تتناثر بعض بيوتات عفرين. فعلى تلك الرابية الجميلة التي كانت تتمدد عفرين عليها، لم تكن تستطيع أن تعد أكثر من ست أو سبع حارات مكتملة البناء وممتلئة. أما باقي الحارات المنتظمة فكانت تتناثر فيها البيوت متفرقة هنا وهناك.

بعيداً عن البيوت، في أقصى شمال عفرين كان بيت وحيد منفصل عن عفرين انفصال قرية عنها. إنه بيت الملقب كرمش، وكرمش هو الاسم القريب لنبات الحرشوف (الكربش). تلك النبتة البرية الشوكية ذات الطعم اللذيذ. طعم ساقها، أو ثمرتها التي تشبه ثمرة الأرضي شوكي. جنوب غرب بيت كرمش، وفي منتصف المسافة بين بيته والبيوت الأولى من عفرين، كانت مغارة صغيرة، يأخذ منها الناس النحاتة البيضاء، أو التراب الكلسي.

لقد شهدت في يوم ما الآلات وهي تفلح قبور عفرين وتزيلها، لتبنى مكانها المدرسة الريفية والدور الجديدة لعفرين التي كبرت وأصبحت شابة، وامتدت أذرعها نحو الشمال أكثر فأكثر.

كل حارات عفرين المستقيمة المتقاطعة كمربعات الشطرنج، كانت ترابية، وبعضها تملؤها الصخور، حيث لا تستطيع أي سيارة ـ على قلة السيارات ـ أن تصل إلى أي بيت إلا بعناء وصعوبة. ولا أتذكر في طفولتي إلا الحمير والبغال والخيول وهي تدب في تلك الشوارع. أمام دارنا بالذات كانت الصخور ترتفع لتمنع أي عربة أو سيارة من السير لم يكن للصرف الصحي أي وجود، بل كان أمام كل دار حفرة (جورة فنية). فالمياه قليلة والصرف الصحي قليل.

كلما تمددت عفرين شمالاً قلّت البيوت وندرت. بيوت عفرين في ذلك الحين، كانت ما تزال تحافظ على طبيعتها الريفية، فالفقير منهم لم يكن يملك أكثر من غرفة واحدة، ومعظمها لم يكن له سور يحميها، أو باب يطرقه زائر. الكثير من السكان كان يربي في الدار نفسها بضعة خراف. أما الدجاج والديوك، فلاتسل فقد كانت كثيرة جداً لا يخلو منها بيت ، ولاأزال أتذكر الدجاجات التي كنا نشتريها حديثاً ، فقد كانت أمي تربط رجلها بخيط ينتهي بشحاطة (حذاء) قديمة، تظل الدجاجة الجديدة تجرها خلفها إلى أن تتعود

على بيتنا ودجاجاتنا القديمة . وكم كانت فرحتنا ـ نحن الأطفال ـ كبيرة حين نرى البيض الذي رقدت عليه الدجاجة الفرخة (الأم) وقد تحول إلى صيصان صغيرة جميلة ذات زغب أصفر جميل.

في أيام البازار، حين ينزل أقاربنا من القرى إلى عفرين للتسوق، كانت الفسحة التي أمام دارنا تتحول إلى إسطبل يشكل الحمير القسم الأكبر من رواده ، وقد نرى بينها حصاناً واحداً لميسور من الأقارب أ والأصحاب.

معظم دور عفرين كانت مبنية بالحجارة. أما الملاط بين الحجارة فكان من الطين لم يكن الأسمنت متداولاً إلا قليلاً. باحة الداركانت ترابية . ولم تكن أسطح المنازل تعرف الأسمنت، وكان فوق كل سطح ترابي، دولاب حجري يدحل به السطح بعد أول إمطار، ليمنع الدلف. كان الطين الذي يفرش به السطح يصنع بطريقة خبيرة، إذ يمزج التراب مع التبن ويخلط جيداً ثم يفرش فوق أعمدة السطح التي تستند إلى جدران الغرفة. وكان يملأمابين الأعمدة بالبلان أو الدفوف الخشبية حسب الحالة المادية لصاحب البيت.

كان الأغنياء يعرفون الأسمنت. أما أنا فقد تعرفت عليه أول مرة، حين فرش (محمد لندو) باحة دار (مصطفى النعسان) بتلك المادة اللزجة الغريبة ، ثم حين جفت، تحولت إلى سطح صلب أملس ناعم يمنع تجمع الأتربة والأوساخ وكل شيء. لقد دهشنا نحن الأطفال ونحن نقارن بين باحات دورنا الترابية وبين تلك الباحة اللامعة السمراء.

الدور في عفرين كانت تتكون من طابق واحد، لم نكن نعرف في عفرين الطوابق المتعددة إلا في بناء المدرسة والمخفر والسراي وبيوت الأغوات (زمجي وخليل آغا) . الدار قد تكون غرفة واحدة أو عدة غرف حسب حال صاحبها من فقر أو غنى، وكانت الغرفة أو الغرف تتوضع على طرف باحة واسعة تلعب فيها الشمس طوال النهار مالئة القلوب بالبهجة والمسرة. وإذا كان صاحب الدار ميسور الحال، فإنه يبني فوق الغرف غرفة يسميها (طبقة) يجعلها لاستقبال الضيوف واستضافتهم. الفقير كانت داره مكونة من غرفة واحدة،

وكانت تلك الغرفة كل شيء: غرفة النوم، وغرفة الضيوف والحمام والمطبخ.

كان البيت العفر يني بسيطاً، مسحة القرية كانت تمس كل مافي تلك البيوت، فالزمن الفاصل بين ولادة عفرين ـ وانفصال ناسهاعن القرية وتألّبهم على عفرين ـ وبين ذكرياتي عنها في الخمسينيات لم تكن أكثر من ربع قرن. الرفوف الخشبية كانت تزين أعالي جدران تلك الغرف، حيث تمتد على طول تلك الجدران، أوعلى أطولها على الأقل، والذي يكون في صدر الغرفة على الأغلب. على تلك الرفوف كانت تتوضع صحون المالقي والبلّور والنحاس وكل ماتستطيع ربة البيت أن تتباهى به. في تجاويف الجدران السميكة، كانت تبنى العنابر حيث تخبأ فيها مواد المونة وكان لها دفات (مصا ريع) خشبية كالنوافذ تماماً. لم تكن الأسرة في عفرين تعرف السرير، كانت ربة الأسرة تتباهى بالفرش التي كانت تنتصب في أحد أطراف الغرفة على مصطبة عالية، أو في تجويف في الجدار، بعضهم يغطيها بستارة وبعضها بدون ستار للتباهي، هذه الفرش كانت تتكون من فرشة من صوف محشو بشكل سميك داخل طبقة واحدة من القماش السميك الملون، ولحاف من صوف محشو أيضاً ولكن بشكل رقيق. داخل طبقتين من القماش، الطبقة الأولى تحتوي الصوف وهي مخاطة بشكل دقيق لكي يتوزع الصوف داخلها بانتظام، ولايفك قماشها إلاعندما يراد غسل صوف اللحاف. أما الطبقة الثانية للحاف فتتكون من قطعتين، الوجه ويكون عادة من القماش الناعم الأملس الذي كان يسمى (أطلس أو جيت)، والقفا أي الطرف الذي نتغطى به كان من القماش القطني الأبيض، وكان يسمى (الخاصة). أما الوسادة فكانت من الصوف المحشو بسماكة أيضاً داخل طبقتين من القماش. الطبقة الأولى من القماش الخاصة، وتحتوي على الصوف. أما الطبقة الثانية فكانت وجه الوسادة . وهي من القماش الأبيض الناعم. وكان طرفا الوسادة ينتهيان بمشغول جميل من خيطان التنتنا الناعمة. أما وجه الوسادة فكثيراً ما كان يزين بخيطان الكناويجا المشغولة بشكل زهور أو غير ذلك. في تجويف آخر من الجدار كان صندوق العروس الخشبي، فغرف النوم الخشبية

أو غيرها لم تكن موجودة إلا في بيوت الأغوات، وأكابر عفرين على ما أعتقد.

على الجدران كانت تعلق صور شعبية ، أذكر منها صورة لفتاة جميلة ذات شعر أجعد، كان يقال: إنها صورة فاطمة المغربية، وصورة لعلي بن أبي طالب وولديه الحسن والحسين جالسين على جانبيه ، وأمام علي سيفه المشطور (ذو الفقار)، وصورة لأبي زيد الهلالي وصورة لجساس قاتل كليب بالغدر ، حيث يمتد شاربا جساس الطويلان على عرض الصورة كلها. أما الصور الأخرى فكانت من القناويجا وكانت رسومها تصنع بخيوط كالحرير في نعومتها ولمعانها ولكنها ثخينة مفتولة . لوحات القناويجا كانت هي الرائجة. وكانت الفتيات يخترعن من خيالهن الشعبي صوراً غريبة عجيبة. أذكر صورة من تلك الصور الأسطورية التي خاطتها أختي. كان في الصورة حصانان هائجان، على ظهر كل حصان فتاة جموح كالحصان الذي تمتطيه، وعلى رأس أو يد كل فتاة طير ملون جميل . كيف لم يطر الطَيْران في تلك المعمعة ؟. لا أدري !!!!كانت الفتيات الحائكات ومعظمهن أميات، يستعنّ بالمتعلمات من الفتيات ليخططن لهن كلمة أو رسماً على القماش الأبيض، ليتحول بعدها إلى لوحة قناويجية. وإذا كانت اللوحة آية كريمة، فإنها تكتب كلها ثم ترسم وتخاط بالخيطان الملونة التي تشبه خيطان الكنفا

كانت تعلق على الجدران جيوب قماشية مصنوعة و مخاطة من بقايا الثياب وغيرها، وكانت خمسة أو ستة جيوب، لها من الأعلى خيط لتعلق على مسمار. كانت ربة البيت تضع في تلك الجيوب الخيطان، وبكرات الخيطان، والكشتبان والإبر، وكل عدة الخياطة. الإبر كانت تشكّ في قفا تلك الجيوب. ولحماية البيت من العين الحاسدة، والشرور كانت تعلق الأورزلك أو الأوزلك على الجدار. والأورزلك هي حبات تشبه حبات الحمص، ولكنها فارغة من الداخل . وهي ثمرة برية صغيرة كانت تجفف، وتجمع بخيطان بواسطة إبرة صغيرة، لتصنع منها أشكال جميلة مزينة بشرائط صغيرة قماشية ملونة تشبه الشرائط القماشية التي كانت تُشْكل في الشعر (الريبان).

طبعاً لن ننسى لمبة (مصباح) الكاز: وسيلة التنوير الأساسية في البيوت . كان الناس يتفننون في صنع محاملها، أو بيوتها التي توضع داخلها. فبعضها خشبية بسيطة، وبعضها من بلّور.

معظم نوافذ تلك البيوت ـ وخاصة الفقيرة منها ـ وكذلك الأبواب، كانت من الخشب. وفي الشتاء أيام البرد، كنا نغلق النوافذ والأبواب فنضحي في عتمة كاملة، إلا إذا تركنا إحدى دفتي الباب مفتوحةً، أو أشعلنا المصباح الكازي.

أما مطبخ تلك البيوت، فكان أبسط وأفقر من الغرف. فيها جميع الأواني النحاسية التي تستخدم للطبخ. كان النحاس سيد المعادن في المطبخ. ولكن عناءه أنه سرعان مايفقد لمعانه وبياضه، فهو لايستمر إلا أشهراً حتى يسودّ، فتعود الأواني من جديد إلى المبيّض أرتين الذي يعيدها إلى أصحابها لامعة كالمرآة. في الخمسينيات كانت بداية ظهور أواني الجينكو (نسبة إلى الصين)، وهي الآنية المعدنية المطلية بالبورسلان والمشوية في الأفران، وكذلك كانت بداية ظهور أواني الألمنيوم. كان الألمنيوم قفزة حضارية، فقد أراح المرأة من عناء النحاس الذي سرعان ما يسودّ بعد تبييضه.

كان الببّور الكازي معروفاً في ذلك الوقت، وأشهر ماركة له كان (البريموس)، ولكن الكاز رغم رخصه في تلك الأيام، فقد كان غالياً بالنسبة لسكان عفرين. ولذلك فمعظم الطبخات والغليات الثقيلة كانت تتم في الموقد الجداري، وعلى الحطب. كل المطابخ كان لها مدخنة جدارية، والخشب موجود بوفرة، فمعظمهم فلاحون ومزارعون، أما البابور فللتسخين أو لغلي الشاي أو القهوة اللذين كانا في بداية انتشارهما.

الطبخ كان ريفياً: المجدرة، البرغل بشعيرية، الفاصولياء الخضراء بالزيت، بسطرما (باذنجان مقلي مطبوخ مع بندورة وبصل وفليفلة خضراء وغيرها)، برغل ببندورة، الكولك، الكوتاييه، الخبازة بالبرغل، والخبازة بالزيت وغيرها الكثير الكثير. أما المحشي والكفتة (كبة الدراويش) والخَوْرة (كبة مرققة غير محشية) واللحم وغيره فكان طعام المناسبات:

العيد، رمضان، الولائم. استهلاك اللحم كان قليلاً جداً في بيوتنا، ومن كان يدعى إلى مطعم كان يتباهى بأنه أكل الكباب والشقف وغيرها. وفي الغروب حيث الوجبة الرئيسية كنت ترى دخان المطابخ يملأ سماء عفرين، وخاصة في تلك الأمسيات الصافية. بحق إن عفرين كانت في تلك السنوات (كالقرية تماماً) تنسل رويداً رويداً من الريف ومن فضاء القرية.

لم تكن غرفة للطعام قط، ولم نكن نعرف طاولة الطعام، أو الجلوس على كراسي لتناول الطعام، كانت تمد السفرة وهي من قماش على الأغلب. أحيانا توضع صينية كبيرة، يوضع عليها الطعام، لم نكن نعرف الكاسات لشرب الماء، بل كانت الطاسة التي نشرب جميعنا بها، نغمرها في ماء الجرة ونشرب. العيران (اللبن الممدد بالماء) كان يوضع في طاسة كبيرة نشرب منها جميعنا بواسطة ملاعق مدورة مقعرة، مصنوعة خصيصاً لشرب العيران، الخبز الذي كان منتشراً في عفرين، وجميع قراها كان خبز الساج، كانت كل أسرة تحتفظ بقسم من الحنطة (القمح) للخبز وتسميه ذخيرة. حين كانت الأسرة تحتاج إلى الخبز، كانت تذهب بكيس القمح إلى الطاحونة المائية (الطاحونة النارية حلت بدلاً من المائية بعد حين)، وفي الطاحونة يتحول القمح إلى دقيق (طحين). لصنع الخبز كانت المرأة الكردية تصنع العجين من ذلك الدقيق، ثم تخبزه دون خميرة. وكان لابد لها من الاستيقاظ قبل شروق الشمس وخاصة في أيام الصيف، لتهيئ العجين، ثم تخبزه على الساج المحمّى على النار . تقرّص العجين أقراصاً صغيرة في الدست، ثم ترقّقها على خشبة مستطيلة (تخت)، بواسطة عصا (دوخ)، وهي تنثر الطحين على الرقاقة، ثم تلف الرقاقة على العصا، وتفردها على الساج* (السيل) المحمّى على النار، فيبدأ الرغيف بالنضج، تقلبه على الساج الحامي إلى أن ينضج تماماً، فتضعه على طبق من القش (تَبك) ليبرد. بعد الانتهاء من الخبز، كانت ترش كل رغيف بنقط من الماء وتطويه طياً متقناً فيبدو كأنه كتاب أو دفتر،

* وعاء مقعر معدني سميك يوضع مقلوباً على منصب معدني ثلاثي القوائم، أو على حجارة لتمد فوقه الرقاقة.

بعد ذلك يوضع الخبز كله في علبة خشبية كبيرة، أو يلف بقماش ليبقى يوماً أو عدة أيام طرياً طازجاً.

لم يكن بمقدور امرأة واحدة القيام بعملية الخبز، فلابد من مساعدة للاهتمام بالرغيف فوق الساج وتقليبه بالشيش حتى ينضج، ووضعه على الطبق القشي. كان الدور الأول للتي تعجن وتقرّص وترقّق. كانت المرأة أو الفتاة التي تقوم بدورها بشكل جيد في الخَبزوالغسيل والطبخ والجلي مضرب المثل، وعلامة مميزة للفتاة التي لم تتزوج بعد. فحين

يود ضرب المثل بمهارة امرأة ما أو فتاة، كانوا يقولون إنها أفرغت طشتاًمن العجين، وخبزته قبل أن تحمى الشمس وترتفع في السماء

حين أصبحت الدولة هي المسيطرة على القمح والمسؤولة عن الطحين وتوزيعه، انتشرت الأفران وخاصة في قرى عفرين، فانتهت المرأة الكردية من عناء خبز الساج، وأصبحت هذه الأفران هي التي تقوم بتلك المهمة وتؤمن لكل أسرة ماتحتاجه من خبز

أجمل المهرجانات كان مهرجان (السليقة) وهي القمح المسلوق لصنع البرغل، . كان المهرجان يبدأبجمع حجارة كبيرة، لتوضع فوقها الحلة الكبيرة (القدر)، ثم تملأ الحلة بالماء والقمح،وتوقد النار تحتها والناس حولها، وبعد مدة تبدأ المياه المغلية فعلها في القمح الذي يبدأ بالانتفاخ رويداً رويداً. كان للسليقة طباخ مختص، يهيىء كل شيء: الحجارة والحلة والخشب للوقود، كان يمسك بيده كفكيراً (ملعقة كبيرة) أورفشاً يحرك به القمح الذي يسلق. فإن شعر بأنه نضج أهدأ النيران ، و أوعز بإحضار(حلّة) صغيرة، ليسكب فيها بالرفش القمح المسلوق ، ليمد ويفرش بعد ذلك على بسط تمد في أي مكان، إلى أن يجف، ويصبح جاهزاً للدق بالتوقماق (المدق الخشبي) في جرن حجري إذا كانت الكمية قليلة أو الهرس بالدولاب* إذاكانت الكمية كبيرة، حيث يزول عنه قشره ويتحول إلى برغل، مكوناً الغذاء الرئيسي في طعام سكان عفرين.

---

*الدولاب من الحجر الأسود، في وسطه عمود خشبي، يرتكز إلى عمودآخر ينتصب في وسط مصطبة عالية يدار بواسطة دابة الثانية.

نحن الصغار كنا نحوم حول تلك الحلة الكبيرة ونندهش من تلك الكفاكيرالكبيرة التي كانوا يحركون بها السليقة. وحين تنضج تلك السليقة، أو قبلها بقليل كانوا يجودون بقليل منها علينا ساخنة يصعد منها البخار ويملؤون طاساتنا الصغيرة.

فنهرع إلى بيوتنا القريبة لنرش عليها السكر ونأكله بملاعق صغيرة أو بأيدينا. أعرفت الآن لماذا هو مهرجان؟

في أي بيت في عفرين لم تكن لتجد حماماً، فالمطبخ كان حماماً أيضاً. وأحياناً كثيرة كانت إحدى الغرف وعتبتها خاصة هي الحمام. وأذكر أن الحمام في الصيف كان أسبوعياً أما في الشتاء فالله أعلم . وأكثر ما كنا نكرهه كان الحمام في الشتاء حيث كنا نواجه ونحن عراة زمهرير الشتاء، وبرد الغرفة الخاوية. الدفء كان ينبعث للحظة في أجسادنا حين نسكب طاسة الماء الساخن ثم نرتجف بعدها من البرد منتظرين طاسة الماء الساخنة الأخرى.

الإنارة

لم تعرف عفرين الكهرباء إلا في عام ١٩٥٢. أتذكر العمال وهم فوق الأعمدة التي نصبوها، لشد الأسلاك عليها مازلت أسمع صوت أحدهم موعزاً بشد السلك: يالله رضا (الظاهر أن اسم أحدهم رضا).

المحطة القديمة لتوليد الكهرباء

قبل ذلك كانت شوارع عفرين تنار بواسطة (اللوكسات) التي كان وقودها الكاز وكان ذلك اللوكس يبدو لنا مصباحاً مقلوباً إذ كان خزان وقوده في الأعلى وزجاجته وإنارته في الأسفل. كان الحي الأوسط في عفرين هو الوحيد الذي يضاء وينوّر. الحي الأوسط هو الذي يمتد من أرض البازار القديم، من أمام المسجد القديم، ومن أمام المدرسة إلى شمال عفرين، والذي يشكل العصب الحساس لمدينة عفرين. ذلك الحي وحده من أحياء عفرين كان يضاء. وحتى ذلك الحي لم تكن كل زواياه مضاءة. بل كان يهمل شارع وينار الثاني. كان لتلك الفوانيس حامل مثبت في جدارالبناء ذي الزاوية المناسبة. تتعلق بالحامل بكرة معدنية يمرر منها كبل معدني ينتهي من الأعلى بخطاف لتعليق اللوكس . أما في الأسفل فللكبل علبة معدنية مثبتة في أسفل الجدار يلتف فيها الكبل حول نفسه أو يرخى حين يعلق اللوكس به. و لتعليق اللوكس أونزعه، يولج في العلبة ذراع معدنية (مانويل)، يدور يمنة أو يسرة لإرخاء الكبل أو شده.

الحديقة العامة

كان حميد (العامل في البلدية) يحمل عند غياب الشمس تلك اللوكسات الأربعة أو

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

الخمسة التي ستنور عفرين كلها. يحملها مضاءة معبأة بالكاز معمّرة من قبل رشيد اللوكسجي (نسبة لللوكس). وحين يصل إلى أول زاوبة، يد خل الذراع في العلبة، ويرخي الكبل ليصل الخطاف إليه، فيعلق اللوكس الأول، ثم في عملية عكسية يدير الذراع، ليرتفع اللوكس رويداً رويداً إلى الأعلى قريباً من سطح تلك البيوت العربية القليلة الارتفاع. ينتقل حميد بعد ذلك إلى الزاوية، الثانية، فالثالثة. حتى يصل إلى الزاوية الرابعة زاويتنا، فنتحلق حوله نحن الأطفال فرحين مدهوشين منتظرين ذلك على أحر من الجمر. فما أن يصل لوكسنا إلى الأعلى حتى يبدأ لعبنا وجموحنا الذي يمتد أحياناً أكثر من ساعتين.

كانت تلك اللوكسات تظل مضاءة دافعة الليل وظلمته بعيداً عنا، وعن البيوت، إلى أن ينتهي الوقود الذي بداخلها. وحين تنطفئ في ساعة متأخرة من الليل نكون نحن ا لأطفال وكذلك الكبار، قد قطعنا أشواطاً بعيدة في نومنا وأحلامنا. في الصباح الباكر يأتي حميد، فيضع ذراعه المعدنية في علبة الكبل ويرخي الكبل لينزل المصباح المنطفئ النائم ويأخذه ليعمّره استعداداً لليلة أخرى.

الإنارة في البيوت كانت بواسطة مصابيح الكاز، ذات الزجاجة البلّورية والفتيل، تلك التي مازلنا نستعملها أحياناً حين تحرمنا الكهرباء من نعمها. كل يوم كانت تلك البلّورة تنفخ بأنفاس أختي، ثم تدخل إليها عوداً خشبياً ملفوفاً بخرقة نظيفة فتمسح الشحوار (السخام) عنه، فتغدو لامعة صافية. كان ذلك المصباح يعلق إلى الجدار بمسمار أو يوضع على ركيزة خشبية خصصت له. بعض العائلات كانت تتفنن فتصنع للمصباح بيتاً زجاجياً ليوضع فيه. في كل يوم كانت الفتيلة المحروقة المتشربة بالكاز تقص وتسوّى لتكون الإنارة أفضل والضوء أكثر. أحياناً يكون حظ الأسرة سيئاً فلاينير المصباح جيداً، تميل شعلته أو تستطيل، وينفث الدخان والشحار. كانت الأسرة حينذاك تلجأ إلى وضع شفرة حلاقة على فوهة البلّورة من الأعلى لتعيير الشعلة وضبطها.

إلى جانب مصباح الكاز هذا كان (الفانوس الألماني)، وكان أكثر مايستخدم في

(المشاوير) في الليل الشتوي أثناء الزيارات. وكان مصنوعاً بطريقة فنية حيث لا تطفئه ريح الشتاء ولا مطره. يضيء طريقنا الموحل بدلاً من البيل الذي لم يكن استعماله دارجاً. كان شكل ذلك المصباح طريفاً. وحين تنظر إليه تعرف أنه صنع للمهمات الصعبة. كان له ذراع من جانبه، ما إن تضغط عليها حتى ينفتح، فتستطيع إطفاءه أو إشعاله، أو تغيير بلّورته أو تنظيفها. كان يعلق في المطبخ، فكثيراً ما يستخدم لإنارته. ولكنه كان فانوس الشتاء بلا منازع.

ثم كان (الفيسِك) وهو فانوس بدائي معدني، يملأ بالزيت المقلي، أو الكاز. وكان يشعل في دورات المياه (عفواً لم تكن هناك مياه لتسمى دورات مياه). المهم أنها كانت تشعل في المراحيض، وكان لها فتيلة مدورة صغيرة تبرز من أنبوب أو لسان قصير تمتص الزيت أو الكاز من جسمها أو طاستها الصغيرة. حين يكون الفانوس مشتعلاً ينبعث منه سخام كثيف. كانت النسوة يضعن أعلى الفانوس وهو مشتعل صحناً أو أي شيء معدني ليتجمع عليه السخام فيصبح كحلاً تزيّن به النساء والرجال والأطفال عيونهم.

أما (اللوكس) فكان في بيوت المقتدرين فقط. وحتى في تلك البيوت كان لا يشعل إلا عند حضور ضيوف أعزاء من بلدة أخرى، أوفي مناسبات الفرح، أو غير ذلك. شكله يختلف عن اللوكس الذي كان يعلق ويشعل في الحارة فلم يكن مقلوباً مثل ذاك بل كانت بلّورته مثل كل المصابيح في الأعلى وطاسته (خزان وقوده) في الأسفل، وكانت طريقة إيقاده وإشعاله تثيرنا وتشد انتباهنا ـ نحن الأطفال ـ فقد كان حوضه الصغير تحت القميص الأبيض الحريري، يملأ بالكحول ويشعل فيشتعل القميص، ثم يضخ الكاز إلى الرأس بضاغطة يدوية، فينبثق من الفالة مشتعلاً فيتوهج القميص الحريري، ويشع المكان بهالة من النور المبهر الذي يتفوق كثيراً على ضياء مصباح الكاز الشاحب.

المصباح اليدوي (البيل) الذي كان يعمل على البطاريات (المدخرات) كان قليلاً نادراً، ومن كان يملكه ويضيء به الطرقات الموحلة للذهاب إلى سهراته الشتوية كان محسوداً من الآخرين.

المواقد والمدافئ

بابور الكاز ذو الماركة المشهورة (البريموس) بلونه النحاسي ورأسه الأسود كان الأشهر بين المواقد. وكثير من سكان عفرين كانوا لايملكونه، بل كانوا يعتمدون على الحطب في الطبخ والغسيل وغير ذلك . ففي مطبخ كل دار في عفرين كانت مدخنة في الجدار وموقد يتم فيه الطبخ والغسيل . وحتى إن كنت تملك بابور البريموس فهذا لا يمنعك من أن تعتمد على الحطب في كثير من حالات الطبخ الكبيرة أو الغسيل الكثير وخاصة إذا كنت صاحب بستان أو أشجار.

كانت طريقة إشعال بابور الكاز تشبه طريقة إشعال اللوكس: ضغطات عديدة على ذراع صغيرة مثبتة في جسم البابور، يحتقن الكازبعدها وينضغط فيصعد من الفالة، ويملأ الحوض الصغير. نشعل الكاز بعود كبريت فيحمى الرأس، نضغط عدة ضغطات بالذراع فيتم الاشتعال. ما أكثر مصلحي البوابير في ذلك الزمان.

في البيوت لم يكن أي نوع من أنواع المدافئ معروفاً. لا أدري إن كان البعض يملك في ذلك الوقت موقداًحطبياً. أما نحن في بيتنا فقد كان (المنقل) هو وسيلتنا للتدفئة. كان يملأ بالفحم الذي كان كثيراً ورخيصاً فقد كان يصنع في جبالنا وأحراجنا. يوضع المنقل خارج الغرفة، يسكب قليل من الكاز على الفحم ويشعل بعود ثقاب. كان الوالد يحذرنا من الوقوف قريباً من المنقل أثناء اشتعال الفحم، كما يحذرنا من إدخال المنقل إلى الغرفة قبل تحول الفحم إلى جمر ويقول: ستختنقون وتموتون. حين يصبح مافي المنقل جمراً متوهجاً ينقل إلى داخل الغرفة حيث يصبح حقاً فاكهة الشتاء. كانت الشتاءات الباردة كثيرة وكان الثلج أكثر.

أحياناً كان والدي يحضّر لنا (التندر). يضع الرماد الساخن وفوقه الفحم المتوهج في صفيحة معدنية (تنكة) ثم يغطي فوهة الصفيحة ثم يغطي كل شيء ببطانية. نتحلق حول التندر ونغطي أرجلنا بأطراف البطانية فينبعث الدفء والحرارة في أجسادنا . كانت تلك الأمسيات أجمل الأمسيات وخاصة إذا رافقتها حكاية أسطورية تحملنا مع أحلامها وخيالاتها إلى عالم آخر.

الصحة

عندما بنت الدولة المستوصف الذي تحدثت عنه سابقاً، كان ذلك الإنجاز العظيم حديث كل أبناء عفرين، وأبناء ريفها، فلأول مرة يكون في عفرين مركز حكومي صحي يعالج الناس بالمجان أول من عالج الناس في عفرين قبل ذلك كان ممرضاً ، كانوا يطلقون عليه اسم (دكتور– ي ـ كيل) الدكتور الأقرع. الظاهر أنه كان أصلع. بعد هذا المرض كان في عفرين طبيب خاص اسمه حسن أفندي مازال أولاده يعيشون في عفرين

في الخمسينيات كان في عفرين قطرة وحيدة لمداواة العين اسمها قطرة اللؤلؤ. كانت ذات لون أزرق، ولها حبابة (زجاجة) ممتلئة بالدواء، وقطّارة بلّورية تنتهي بكيس مطاطي. أيّ عين مهما كان مرضها كان دواؤها الوحيد قطرة اللؤلؤ. يمكن أن تكون هناك بعض المراهم ولكني لا أتذكر إلا قطرة اللؤلؤ.

انتشر الجرب مرة في ذلك الوقت في عفرين فأصبنا به جميعاً. كان الدواء زهر الكبريت (كبريتات النحاس). كان الأهل يذوبّون تلك المادة الصفراء في أوان مليئة بالماء ثم نسكبها على أنفسنا.

مرض السل كان منتشراّ في ذلك الوقت دون أن يكون له علاج. أذكر أن أمي أخذتني مرة معها إلى قرية عرش قيبار لنعود أحد المرضى بذلك الداء. كان على فراش الموت ، وحوله أهله وعواده وبجانبه علبة معدنية يبصق فيها بين الفينة والفينة. كان السل يسحب أنفاسه، ويذيب جسده، كان يموت موتاً بطيئاً، والجميع حوله لاحول لهم ولا قوة. كان السل في ذلك الزمان مثل السرطان في أيامنا هذه، ماعدا قطرة اللؤلؤ وبعض المراهم والعلاجات البسيطة كان الطب العربي أو الشعبي، هو الأكثر شيوعاً فإن تألمت الأذن ينفخ فيها بدخان سيكارة، أو يسخن الزيت ثم يفتّر ويسكب فيها. أعتقد أن أذني قد عولجت في طفولتي بتلك الطريقة فبعد خمسة عشر سنة من تلك الطفولة رفضت في الفحص الطبي للكلية الجوية بسبب ندبة على غشاء طبل الأذن اليسرى.

كؤوس الهواء (الحجامة)كانت طريقة مثلى في طرد الألم ــ لذع مكان الألم بخرقة مشتعلة ـ العلق لامتصاص الدم الفاسد ـ القراءة الدينية على الماء ثم مسح مكان لدغة الأفعى بذلك الماء ـ التمائم والحجب والقراءات الدينية. كل تلك الأمور كانت متداولة في الطب.

التجبير العربي الشعبي للكسور كان هو طب العظام في ذلك الوقت. وضع شعرات الماعز على العظم المرضوض، ووضع الجبائر المتنوعة على الكسور، كان فن أولئك المجبّرين

أصبت مرة بالسعال الديكي. أخذتني أمي إلى أعلى الجبل الذي يشرف على عرش قيبار (عش قيبار). كان في أعلى الجبل صخرة مجوفة كالحلقة أو كالخاتم تماماً. مررتني أمي من تلك الحلقة سبع مرات داعية لي بالشفاء . بعد أيام من تلك الزيارة الصحية شفيت من السعال. كانت أمي متأكدة من أن تلك الصخرة هي التي أشفتني، لاهواء الجبل النقي.

مجاذيب عفرين وصعاليكها

شيخ رشيد الذي مات في أواخر القرن الماضي، كان من مجاذيب عفرين في الخمسينيات. وقد نال شيخ رشيد شعبية واسعة عند أهالي عفرين، وقراها في السنوات الأخيرة قبل وفاته في بداية هذا القرن، وأصبحت تروى عنه الكرامات العديدة، وقد طبعت صوره، وأصبحت تعلق في البيوت، ولو لم يخطفه الموت لتحول إلى صاحب كرامات وصوفي.

شيخ رشيد هذا أذكره تماماً في طفولتي. كان هادئاً لطيفاً، وأكثر ما كنا نراه متعلقاً بأشجار الصنوبر التي كانت تنتشر أمام السراي، ليقوم عليها بتمريناته الرياضية الصباحية. وأحياناً كان يجلس معنا نحن الأطفال، فيحدثنا أحاديث العاقلين . أما لماذا جن ؟ فكان يقول عن نفسه : إنه شيخ، وقد قرأ الآيات الكثيرة، فجمع الجن، ثم لم يعد يعرف كيف يفرقهم فجننوه . نحن الصغار كنا نناديه : شيخ رشيدون.

المجنون الثاني كان فتاة. فتاة متشردة تزور بيوت عفرين جميعها، فيطعمونها مما يأكلون. أين كانت تنام وتأوي؟ لست أدري يمكن أن يكون في البيوت التي تزورها : في المطبخ أو في مكان ناء عن أهل الدار. كانت تسمى (أمّون) ترخيم (أمينة). وكانت ممتلئة يافعة.

في إحدى زياراتها لنا كانت مثار تعجب ودهشة الجميع، كان بطنها منفوخاً تماماً، كانت حامل في شهرها الخامس أو السادس. قيل حينذاك: إن بعض الشباب الأوغاد قد قادوها إلى تلك المغارة التي قرب المقابر على طريق بيت كرمش، وهناك اغتصبوها فحملت. اختفت أمون بعد تلك الزيارة، فلم نعد نراها أو نسمع أخبارها.

قرطل: كان متشرداً في عفرين، لا يعرف له أهل، ولا يعرف اسمه الحقيقي، ولكن الجميع كانوا يدعونه قرطل. كان يعتمد في معيشته على التسول والمساعدة، فقد كان يساعد الناس فيحمل حاجاتهم ويوصلها معهم إلى بيوتهم، فيعطونه بعض المال الذي يشتري به طعاماً، أو غير ذلك. لم يكن مجنوناً بل نصف مجنون.

كاجو: كان نحيلاً قميئاً، تجواله كان دائماً بين البيوت بحثاً عن الطعام لافي السوق. لايأخذ الطعام معه بل يتناوله في البيت الذي يتصدق به عليه. إذا طُلب منه أن يقوم بأي عمل منزلي فإنه يقوم بذلك. كلامه لم يكن واضحاً كان فيه لثغة الأطفال الصغار. لباسه كان قميصاً من الأعلى وسروالاً من الأسفل. كان بعضهم يسمح له بالمبيت في دارهم، فلامكان يأوي إليه إلا الشارع.

كرد: كان أشهر سكّير في عفرين. لاتراه إلا كالمعتوهين من شدة الشرب والإفراط فيه، ونتيجة سكره كان مؤذياً أحياناً. يسب الناس، ويتشاجر معهم، فيساق إلى السجن ليحبس قليلاً ثم يخلى سبيله.

القصة التي كانت أمي ترويها عن كرد: «شكا بعض الناس كُرْدللدرك بسبب عبثه ومشاكله. أختبأ كرد في البيت وهدد زوجته بمعاقبتها إن وشت به. جاء الدرك وهم يعلمون أن كرداً مختبئ في البيت، سألوا زوجته، لم تنبس الزوجة بأي كلمة، ولكنها كانت تشير بيدها إلى مكان اختباء كرد. قبض عليه وسيق إلى السجن وهو لايدري أن زوجته هي التي دلتهم عليه.»

الأرمن في عفرين

من المؤكد أن الأرمن الذين استوطنوا عفرين، جاؤوا في سنة المذبحة ١٩١٥، هرباً من الاتحاديين الذين أصدروا قرارهم الإجرامي التاريخي بإفناء الأرمن عن بكرة أبيهم بكل الوسائل التي تتاح لهم، من قتل وتشريد، وتجويع وتهجير، لتفرغ أرمينيا التركية من أهلها، وليزول اسمها من خارطة تركية.

بيوت الأرمن في عفرين في نهاية الأربعينيات، كانت كثيرة جداً. وكان أغلبها محاذياً للطريق الصاعد إلى راجو، وامتداد ذلك إلى الشرق داخل جسم عفرين . منذ نعومة أظفاري، فتّحت عينيّ على جيراني الذين كانوا من الأرمن. إن الصورة التي أحملها عنهم هي صورة رائعة، مليئة بالمحبة والأخلاق والنبل. الدار المقابلة لدارنا كان أصحابها من الأرمن، من الذكريات الطريفة التي أتذكرها عنهم، هجوم إوزهم عليّ حين أدخل مع أمي إلى دارهم ـ وما أكثر زيارات أمي لهم ـ تلك الإوزات كانت تهاجم الأطفال الصغار فقط، وكأن لها عداوة قديمة معهم. ولذلك كنت أحتمي بأمي وأنا أصيح . لماذا كانت تهاجم الصغار؟ أعتقد أنها كانت تفعل ذلك حين كانت تقود خلفها فراخها حرصاً عليهم من شر الصغار.

ومن المفارقات الطريفة التي أذكرها، أن أهلي جميعاً تعلموا من جيراننا الأرمن، اللغة التركية، لغة أولئك الذين شردوهم وقتلوهم. أنا الوحيد الذي لم أتعلم تلك اللغة، أعتقد أن ذلك كان بسبب صغر سني وقصر المدة التي قضيتها بجيرتهم.

أشهر ما كانوا يصنعونه من العنب هو الباستيق والسنجق (الملبن). لقد توارث الأرمن ـ وهم زارعو الكروم وغيرها ـ حب الزراعة والأرض. ولكن لا أرض لهم هنا، لذلك كانوا يتقنون الصناعات الغذائية، وخاصة ما كان منها من الكرمة كالدبس والباستيق والسنجق.

كانت الشراشف التي يمدون عليها الباستيك، تدلّى من أطراف الأسطحة ليجف ذلك الباستيق. فماهو الباستيق؟ إنه عصير العنب الذي كان يغلى حتى يكثّف، ثم يمد على الشراشف بعد أن يصبح لزجاً، وما أن يجف قليلاً حتى تدلّى تلك الشراشف على واجهات

البيوت من فوق الأسطح، حتى يجف تماماً فينزع بسهولة. كان رقيقاً رقة خبز الساج الذي كان يخبز في عفرين وقراها. كان يطوى عدة طيات فيصغر حجمه ليصبح بحجم دفتر أو كتاب، ثم يخزن مادة سكرية غذائية صافية، مثل أي حلوى من الحلويات. أطيب تناول لذلك الباستيك كان مع الجوز.

أذكر السنجق الذي كانوا يصنعونه أيضاً. فكم شددنا تلك الخيوط المعلقة المليئة بالجوز والباستيك من جدران جيراننا الأرمن نسرقها ـ نحن الأطفال ـ ونأكلها فنتلذذ بطعمها الرائع وخاصة أنها ممتلئة بالجوز. كثيراً ما كنت أراهم يصنعون ذلك الملبن. يحضّرون لباب الجوز ثم يثقبونها بإبرة طويلة منتهية بخيط طويل. يضمون ستة أو سبعة لباب ثم يغمسونها في ماء العنب المغلي اللزج (البستيق) عدة مرات فيتجمع الباستيك حول الجوز، ويكون السنجق أو الملبن.

في أواخر الأربعينيات من القرن الماضي، أصدر ستالين نداءه الشهير للأرمن المهجرين من أرمينيا التركية إلى كل أصقاع العالم بالمجيء إلى أرمينيا السوفييتية والاستيطان فيها. وقد لبى الكثير من الأرمن الدعوة ومنهم أرمن عفرين، باعوا على عجل بيوتهم، وأشياءهم الثمينة والرخيصة، تركوا بيوتهم وذكرياتهم خلفهم ملبين دعوة الوطن والأشقاء الأرمن.

بالنسبة لنا نحن ـ أهالي عفرين ـ كانت لحظات حزينة، حين ودعنا أولئك الجيران الطيبين الذين عشنا معهم أكثر من ثلاثة عقود من الزمن مليئة بالألفة والطيبة. ترتسم حتى الآن في ذاكرتي، تلك الصورة الحلوة لصديقي الصغير (سركيس) الذي لم يكن يتجاوز السادسة من عمره، وهو يحمل آلته الموسيقية التي كانت تشبه البزق، وأظن الآن أنها الماندولين. يحمل تلك الآلة ليهديها إلي. أخذتها مدهوشاً حزيناً. قبلني (سر كيس) ثم مضى لتقلهم السيارات وتذهب بهم نحو الوطن.

حتى الآن صورة كنيستهم في بالي. كانت تقع في موقع قريب من شعبة التجنيد الحالية. لو سرت في الطريق العام الصاعد إلى راجو، وانعطفت في أول شارع فرعي نحو

اليسار وسرت غرباً قليلاً لوصلت في ذلك الزمن إلى الكنيسة التي كانت تستند بظهرها الشرقي إلى ظهر الدكاكين التي تنتثرعلى شارع راجو، وينفتح بابها على الغرب على سهول معراته. صوت جرس كنيستهم، وصلاتهم أيام الآحاد مازال في أذني وفي عيني. كان لأطفالهم الصغار روضة في الكنيسة نفسها، فقد كنت أرى الصغار أثناء مروري من أمام باب الكنيسة، وهم بثيابهم الجميلة الأنيقة، أو أسمع أناشيدهم وغناءهم وأرى رقصاتهم في أيام احتفالاتهم.

لم يبق بعد ذهاب الأرمن إلا الصور والذكريات: البيوت التي تركوها وسكنها غيرهم، الكنيسة والروضة، القبور وعلى بعضها صلبان كبيرة. بقيت بعض الأسر زمناً في عفرين ثم رحلت هي أيضاً إلى حلب، واستقرت هناك رغم بقاء مكان عملهم في عفرين، مثل هاروت الحداد، ونوريك الصايغ.

إن آخر أسرة غادرت عفرين إلى حلب، كانت أسرة باندك التي منها صديقاي بدروس ووانيس وإخوتهم. إن الطفولة التي قضيناها معاً كانت من أجمل الطفولات.

أفكار الناس ومعتقداتهم

كانت الخرافة، وقصص الجن، والقصص الديني المرعب، هي التي كانت تملأ مخيلتنا ـ نحن الأطفال ـ في ذلك الزمان. أي عمل تنبيهي كان مرتبطاً برادع ديني أو خرافي مخيف. إذا أردت أن تسكب ماء ساخناً على الأرض وأنت واقف، فعليك أن تنحني إلى الأسفل، وتسكبه بهدوء لكي لايطرشك (يرشك) الجن بذلك الماء الساخن فتجن أو تصبح مجذوباً. إذا قصصت أظافرك في الليل، فإنما تقص أظافر العفاريت. إذا دخلت البيت وأنت تصفر، فإنك تجعل جميع الملائكة في الدار تهرب. لا يجوز للمرأة أن تكنس البيت مساء وخاصة يوم الخميس مساء لأنها تطرد الملائكة... إلخ

أما قصص الجن، فكانت قصص ليالي الشتاء الطويلة، وسأ ذكر قصة منها لأبين كيف كانت ترعب الأطفال وتملأ نفوسهم ذعراً وخوفاً. ترددت في بيتنا قصة مفادها أن

الجن مساء البارحة، كانوا أمام باب جيراننا يصيحون باسم إحدى بناتهم الثلاث. البنات كن وحدهن ليلتها، فالأب الجمركي كان في مهمة، والأم اضطرت أن تسافر إلى القرية لمرض أمها ، يتضح لي الآن أن أحد العشاق عرف بغياب الأب والأم ففكر بلقاء محبوبته. ولكن القصة ملأت رأسي هلعاً. في تلك الليلة كان أبي مسافراً، وهطل المطر بغزارة، ولأن أبي لم يدحل السطح الطيني لدارنا بعد، فقد دلف السقف وكأن ينابيع قد انبثقت منه. ذهبنا بكل أريحية ونمنا عند الجيران الذين كان سطحهم من الأسمنت لايدلف. نام الجميع، إلا أنا، لم أذق طعم النوم طوال الليل. كانت ليلة ليلاء. أبواب الغرف المغلقة كانت تشرع ويدخل منها الجن برؤوس عجيبة وهم ينادونني باسمي: جمعة... جمعة قم معنا. لم يغمض لي جفن حتى الصباح.

حين خسوف القمر كانت عفرين كلها تستنفر، فالحوت يأكل القمر. من كان من الرجال يملك مسدساً، أو بندقية أوبارودة صيد، كان يطلق الطلقات باتجاه القمر ليقتل الحوت. أمانحن ـ الصغار ـ فكنا نحمل عصياً نقرع بها صفائح أو تنكات أوطناجر فنصدر أصواتاًمزعجة، لعل الحوت يخشى منها فيهرب

بنت جيراننا تزوجت في قرية نائية من قرى عفرين. خرجت مرة مع غيرها من النساء إلى البرية لتجمع الحطب. تشنج عنقها فجأة والتوى، وماتت على أثرذلك. كان التعليل أنها أثناء احتطابها قد داست على سفرة (مائدة) الجن وهم يتغدون، فقام أحدهم، وصفعها على خدها، فالتوى عنقها وماتت.

كثير من القصص كانت تروى عن نساء أخذهن الجن أثناء نومهن، ليتسلوا معهن، وحين أعادوا إحداهن إلى بيتها ملؤوا مريولتها* أو جيوبها بقشر البصل. وما كان منها إلا أن

---

* المريول: قماش يوضع فوق الثوب من الأمام أثناء عمل المرأة يبدأ من الخصر وينتهي عند الركبة. له رباط يلف حول الخصر.

ترمي ذلك القشر. في الصباح كانت قشرة باقية في الجيب قد تحولت إلى قطعة نقدية ذهبية.

الحجب والتمائم كانت تملأ كل مكان. رؤوس الصغار وظهورهم كانت تعلق عليها التمائم والحجب. بعض هذه الحجب كان يخبأ في أمكنة سرية، لا يعلم بها من كتبت له. وذلك لتفك سحراً، أو تقرب حبيباً، أو تخيب عدواً.

لدغة الأفعى كانت تداوى بقراءة بعض الآيات وسكب الماء المقروء عليه على مكان اللدغة.

دفن الأموات كان عادياًعند أغلب الناس، ولكن بعضهم كان يوصي بأ ن يدفن إذا مات باحتفال ديني. ولذلك كانوا حين الدفن يستدعون المشايخ مع أعلامهم ودفوفهم (عرباناتهم)* و يستدعون أيضاً الشيخة فاطمة، وكانت كسيحة، فيؤتى بها راكبة على حمار، لترافق الركب. وكانوا يقرعون الدفوف، فيهتز على وقعها حاملو الأعلام، كان يقا ل إن بعض الأعلام تطير من أيدي أصحابها، أثناء النوبة والاهتزاز، فتصيح الشيخة فاطمة بالعلم، فيعود إلى يد صاحبه.

الموالد كانت كثيرة في عفرين، وكان يرافقها أحياناً النقر على الدفوف والذِكْر. وقد شهدت أحد هذه الموالد، وكان باللغة الكردية والتركية والعربية، وكان بعنوان " جنكه (معارك) محمد حنيفة " ابن الإمام علي ولكن ليس من فاطمة الزهراء.

أما المولد الثاني الذي حضرته أيضاً وأنا صغير، فالظاهر أنه كان ذِكْراً، فكثير من المشتركين كانوا في حالة ذهول تام قد سيطرت عليهم النوبة. وكان أمامهم طاسات فيها ماء يشربون منها، ويسمونها (أف سين) ماء السين. يمكن أن يكون ماء سورة يس. وكان يقال لنا نحن الأطفال إنه ماء مقروء عليه، ومن يشربه تأتيه النوبة. في تلك السهرة كان أحد المشايخ الشباب قد أحضر معه أفعى سوداء، كان يمررها على عنقه وأنحاء من جسمه. وحين سألناه: لماذا لاتلسعك، أجاب إنها مسلمة مثلنا.

---

* مازال هذا التقليد أثناء دفن الموتى، ولكن بشكل محدود.

القرباط في عفرين

هم من الغجر الجوالين، وكنا لا ندري من أين يأتون، ولكننا كنا فجأة نرى خيامهم قد زرعت في أرض جعفر أمام عفرين كلها. كان رجالهم يمتهنون مهناً عديدة، منها إصلاح الأسنان: خلع وتصليح وتلبيس وبخاصة تلبيس الذهب وكانت مودة (عادة) العصر في ذلك الزمان، الفقير من الناس كان يكتفي بتلبيس السن فضة فهو أرخص. كان هؤلاء القرباط هم أطباء الأسنان . من المهن الأخرى التي كانوا يعملون بها هي صنع الطبول من الخشب وجلود الحمير. وفي سنة من السنوات عملوا في الوشم، وأشاعوا أن من يشم أطفاله ينقذهم من الموت. ولأن الكثير من الأطفال كانوا يموتون، وليست هناك أسرة لم يمت منها طفل أو طفلان أو أكثر، فإن معظم أطفال عفرين قد وشموا، ومنهم أنا، فقد مات قبلي ثلاثة أطفال. كان القرباط يشمون أرنبة الأنف وأحد الخدين وأسفل الذقن، المهم أن لايكون صليباً، وكان الوشم بقعاً سوداء بحجم حبة العدس. نعم كان ذلك الوشم من نصيبي، ومازلت أحمل جريرة الأهل والخرافة حتى الآن. وكان أيضاً من نصيب كل أطفال حارتنا صبياناً وبناتٍ. حين كبرت الصبايا ظهرت تلك الدقات السوداء واضحة في بياض بشرتهن الجميلة.

في المساء قبل الغروب كانت تبدأحملة القرباط لجمع الطعام من بيوت عفرين. نسوتهم كن يقمن بهذا العمل، وكانت الكلاب من ألد أعداء هؤلاء النسوة، فالبيت الذي كان فيه كلب كان يمتلئ عند المساء بالنباح . كانت الكلاب تهاجمهن

بشراسة فتتعالى أصواتهن في أرجاء الدار مذعورات خائفات. كن يحملن في يد عصاة يدافعن بها عن أنفسهن ضد الكلاب، وفي اليد الثانية وعاء من التنك (الصفيح) أسطوانياً يحمل من أعلاه بخيط متين. كان الناس يضعون لهم في ذلك الوعاء ما يجودون به من أطعمة فتختلط كلها ببعض، فنستغرب كيف سيؤكل ذلك الطعام المتنوع العجيب.

الأطفال ثيابهم وألعابهم وصحنهم

الصورة التي أحملها عن ثيابي التي كنت ألبسها وأنا صغير صورة بائسة. ثوب واحد فقط كان ملبوسي، قمباز مخطط بخطوط طولية لها لمعة حريرية، كنا نسميه القمباز الحموي. لم أعرف الثياب الداخلية: السروال والقميص إلا في وقت متأخر. كنا حين نصل إلى النهر للسباحة نخلع ذلك الثوب الوحيد وننندس في الماء عراة كما خلقنا. حين أرى في بعض البرامج أطفال إفريقيا يسبحون عراة أتذكر أطفال عفرين. كان لذلك الثوب جيب واحد على طرفه الأيمن، وله كمر من الخلف، كنت أظن أن ذلك الكمر خِيط مع الثوب لكي يتمسك به رفيقي الذي خلفي حين كنا نلعب لعبة القطار.

كل شيء يعطى لنا كنا نضعه في ذلك الجيب الوحيد. أذكر مرة أن أمي أعطتني بيضة، لأقايض بها السمان على قضامة أو دروبس، وضعت البيضة في الجيب الوحيد وركضت فرحاً، وقعت وأنا أركض فتحولت البيضة في جيبي إلى سائل لزج عجيب

معظم أيام السنة كنا نسير حفاة، فالحذاء لا يشترى إلا في العيد، فإن اهترأ فليس هناك حذاء جديد إلا في عيد جديد فرحتنا ليلة العيد كانت لاتوصف، فهناك ثوب جديد وتاسومة حمراء جديدة. كنا ننام في تلك الليلة – نحن الصغار ـ ونحن نحتضن تلك الأشياء الجديدة نزرع معها أحلاماً سعيدة.

من أهم الألعاب النهارية التي كنا نمضي بها أوقاتنا المليئة بكل أنواع الفرح، كانت السيارات التي كنا نصنعها من الأسلاك المعدنية الثخينة (التيل). تلك الأسلاك كنا نقطعها من المعبر الحربي الإنكليزي، على نهر عفرين. كنا نصنع تلك السيارات على شاكلة السيارات الحقيقية الموجودة في عفرين. فمنها التاكسي ومنها البوسطة ومنها الكميون. كنا نتفنن في صناعتها ونتباهى ونتبارز في أيها الأجمل والأتقن. الطريف أن مقاودها كانت طويلة جداً تمتد من السيارة الصغيرة على الأرض لتبلغ قاماتنا. وكنا نحمّلها أحياناً بما يشبه البضاعة، ونتجول بها ونحن ندير مقودها إلى اليمين أو إلى الشمال.

لن أنسى طبعاً سيارتي الخاصة. نعم كان عندي سيارة خاصة لم تكن مصنوعة من الأسلاك (التيل) صناعة وطنية بل كانت مستوردة جاهزة. كانت قصعة(إناء للطعام) عسكرية عائدة لأبي الذي كان عسكرياً. كانت القصعة مؤلفة من قطعتين: الوعاء والذراع (المسكة) الوعاء كان من الألمنيوم والذراع كان من السلك. الوعاء كان أثناء اللعب يمتلئ بالتراب (الحمولة) أما الذراع فكانت تربط بخيط طويل أجر به شاحنتي، سيارتي الخاصة.

اللعبة الثانية كانت دواليب الهواء. وهي دواليب صغيرة تشبه العنفات، كنا نشتريها جاهزة، أو يصنعها لنا إخوتنا الكبار من الورق الملون المصقول اللامع. تقص العنفة وتلصق أجزاؤها الأربع بعضها ببعض بدائرة ورقية صغيرة، ثم تثقب تلك الدائرة الأمامية والخلفية، ويمررمنها سلك معدني رفيع ليلف في الخلف على عود خشبي طويل. نمسك بنهاية ذلك العود ونوجه الدواليب وجهة الهواء، فتدور بهبوب الهواء. أحياناً كنا نتسابق فنركض باتجاه الهواء لنرى من دولابه أسرع، طبعاً الدولاب كان هو السريع لانحن الذين نجري ونركض.!!!

اللعبة الثالثة كانت الإطارات المعدنية لدواليب الدراجات الهوائية (الجنط). كنا نصنع أذرعاً معدنية ثخينة تنتهي بعقفة متناسبة مع عرض الإطار حيث تدخل حافة الإطار في تلك العقفة. نمسك بالذراع المعدنية، وندفع بقوة ذلك الإطار ونركض بأقصى سرعة لتدور تلك العجلات بأقصى سرعتها. تلك اللعبة كانت لاتتم إلا على الطريق الإسفلتي طريق راجو المواجه لبيوتنا. هناك على ذلك الطريق كنا نقف خمسة أو ستة متسابقين نسد الطريق كله. وتنطلق إشارة ما فنجري بكل طاقتنا وكل فرحنا، في سباقنا نحو السعادة الطفولية.

اللعبة الرابعة كانت القيط أو الحوح. عصاً متوسطة الطول هي الأداة التي يمسك بها اللاعب. وعصاً قصيرة جداً بطول القلم مبريّ من طرفيه بشطفتين متعاكستين هذا القلم يكون على الأرض، والعصا تكون بيد اللاعب. يضرب اللاعب بالعصا طرف القلم فيرتفع القلم في الهواء فيتناوله اللاعب بضربة أخرى تطيح بالقلم بعيداً. اللاعب المنافس ينتظر القلم فإن

التقطه في الهواء يصبح هو اللاعب والآخر الخصم.

اللعبة الخامسة كانت الدحاحل أو الكرات الزجاجية (gul). وكانت عدة أنواع: المثلث أو الدائرة أو الديك. في لعبة الديك يتحول الدحل الرابح إلى ديك وحين يخطئ في إصابة الدحل المعادي عدة مرات يصبح الدحل الآخر هو الديك وهكذا. لم أعد أتذكر كيف كانت تجري لعب الدحاحل الأخرى.

اللعبة السادسة كانت البلبل أو الصيّاح. ترسم دائرة ويوضع صياح ما في البداية في وسط تلك الدائرة فينهال عليه باقي الأطفال اللاعبين بصياحتهم وهي دائرة. ولابد من أن يضع صياحه بعد الضربة الأولى على كفه وهو يدو، ويضرب به الصياح الساكن وسط الدائرة. فإن فشل في المحاولة يصبح بلبله هو الساكن الميت وسط الدائرة. كانت البلابل في ذلك الزمان خشبية وهي اليوم بلاستيكية. وكان الطفل الذي يكسر صياح الدائرة يصبح هو وصياحه بطلي تلك اللعبة.

أحضر لي أخي الذي كان رقيباً في الجيش في الخمسينيات هدية، كانت عجبة العجائب. الهدية كانت أفعى مكونة من فقرات خشبية مترابطة فيما بينها برباط مطاطي فيه شيء من الهواء، ما أن تضغط إحدى الفقرات حتى تتلوى الأفعى كأنها أفعى حقيقية. كنت أختار الزمن المناسب للعب أفعاي. كان ذلك في وقت الأصيل حيث تجلس معظم نسوة عفرين أمام الدور. كنت أخبئ الأفعى في كيس قماشي، وأتسلل بين الجمع النسائي، وأخرج الأفعى فجأة وأضغط على فقراتها فتتلوى باثة الذعر والهلع بينهن.

أعظم فرحة لنا نحن الأطفال كانت عندما يأتي صاحب صندوق الدنيا أو عجايب غرايب كماكنا نسميه نحن. كانت الفرنكات تنتزع من الأهل. وما أن يحط صاحب الصندوق الرحال بصندوقه، ويضع المقعد الطويل على الأرض، حتى نتجمع عليه نحن الصغارنرفع فرنكاتنا إليه، ويستلم كل واحد منا عدسة مكبرة ويحيط بها بكفيه حتى تكون الرؤيا واضحة. ثم يبدأ العرض، ودوران الشريط الورقي المصور، وتعليق صاحب الصندوق. فالصورة

مع الصوت... تعا تفرج ياسلام... على عجايب الزمان. شوفو عنتر عحصانو. شيبوب راكض قدامو، عبلة الحلوة تتمختر. كان الكبار يحسدوننا على هذه الفرجة وهذا الفرح. ولذلك كثيراً ماكانوا يدخلون الصندوق وصاحبه إلى باحة الدار ليتمتعوا هم أيضاً.

الفرجة الثانية في عفرين كانت حين يحضر القرد مع صاحبه ومدربه. كان القرد من فصيلة القرود الكلبية، تلك التي لها ذيل طويل، ومؤخرة حمراء مكشوفة. كنا نحن الصغار نسميه السعدان. كان مع صاحب القرد دف ينقر عليه حين يريد عرض ألعاب القرد. كان الناس يتحلقون حولهما، وقبل بدء العرض يدور مع دفه على الحاضرين ليضعوا فيه فرنكات هي أجرة العرض. ينقر المدرب على الدف، فيقوم القرد ببعض الحركات البهلوانية، ثم يوقف النقر على الدف، ويصدر للقرد إيعازات، ليقوم القرد بتنفيذها. كيف تعجن العروس الجديدة العجين؟ يضم القرد كفيه ويقبل بهما على الأرض مقلداً العروس وهي تعجن، ولكن بحركات مضحكة. كيف تنظف الأم شعر ابنها من القمل؟ حينئذ يقترب القرد من أقرب الناس إليه، ويقفز إليه ليفلي شعره، وينزع القمل منه، بين ضحك الجمهور ومرحه وخوفه من قفز القرد إلى أحدهم. العبارة التي كان الناس يرددونها حين يرون القرد هي: بسم الله. اعتقاداً منهم أن هذا القرد كان إنساناً فمسخه الله قرداً، عكس نظرية داروين.

أما ألعابنا الليلية فكانت تجري تحت ضوء المصباح المعلق في زاوية الحار ة التي لاتبعد عن بيتنا إلا أمتاراً قليلة. كانت هذه الألعاب خصبة، مليئة بالحياة. أيّ لعبة للصغار تخطر على بالك، كنا نلعبها في تلك الليالي التي كانت المصابيح القليلة تذيب ظلمتها، وتذيب كربتنا، وتملأ قلوبنا فرحاً. كان كثير من الصغار يبرزون في تلك الألعاب، ويبدعون فيها.

من تلك الألعاب لعبة الحرامية والبوليس، حيث كنا ننقسم فريقين : فريق البحث والتقصي، وهم البوليس، وفريق التخفي وهو فريق الحرامية. ما أن يبصر أحد أفراد البوليس فرداً من الفريق الآخر، حتى يتسابق الطفلان: الحرامي والشرطي للوصول إلى

حَجَرَة في الجدار هي المخفر. فمن يضع يده عليها أولاً يكون الغالب. ويترافق ذلك عادة بأصوات صاخبة فإن لم يستطع فريق البوليس كشف أفراد الفريق الآخر، وسبْقه للمس الحجر يخرج في نوبة أخرى للمطاردة، والكشف، ويخرج الفريق الثاني للاختباء والاختفاء. من المبدعين في تلك اللعبة في التخفي والسرعة، كان حسن ترمانيني. وكنا ندعوه جيني. أي صيني لصغر حجمه وسرعته.

اللعبة الأخرى المثيرة حقاً كنا نسميها (الحمار). حيث ننقسم فريقين، كل فريق لا يقل عن أربعة أطفال. ينحني الفريق الأول انحناء كاملاً في ركوع ليشكل ظهر حمار طويل. أما الفريق الثاني فعليه القفز والركوب والبقاء لفترة محددة، تنتهي بانتهاء العد إلى رقم معين. فإن ثبت الجميع على الظهور دون أن يسقط أحد، أعادوا الكرة في الركوب، وأعاد الفريق الثاني تكوين ظهر الحمار للركوب.

ألعاب أخرى كثيرة، ولكنها كانت لاتحتاج إلى عدد كبير من الأطفال. مثلاً لعبة (الذبابة) حيث يصيح أحدهم وقد أضمر عدداً: ميشي... ميشي (ذبابة... ذبابة). فيجيبه الآخر: لبّيه (نعم) فيصيح الأول: جندن (كم). فإن عرف الفريق العدد المضمر تتغير الأدوار ويعاني المغلوب ما يعاني.

لعبة الكرسي: حيث يشبك لاعبان ـ وهم الفريق الأول ـ قبضاتهم لتكون مقعداً يستريح عليه واحد من الفريق الثاني، ويحملانه من مكان إلى آخر. ثم يسألانه عن أمر ما. فإن لم يعرف، يكلّف هو ورفيقه بتكوين المقعد وحمل واحد من الفريق الآخر.

أجمل اللعبات كانت لعبة (الأكوام) وكنّا نلعبها في الليا لي المقمرة، حيث ينسكب القمر فيملأ بضيائه كل الحواري، وكل الزوايا المخبأة. كانت مديات هذه اللعبة واسعة، تمتد عشرات الأمتار وتتجاوز مكان لعبنا إلى حارة أخرى، أو حارتين. كان الفريق الرابح يغيب زمناً لابأ س به يقضيه في بناء أكوام ترابية صغيرة من التراب الناعم، متوزعة في أماكن متعددة. ثم يعود الفريق إلى المركز، ليرافق الفريق الآخر الذي سيبحث عن تلك

الأكوام ليهدمها ، دون أن يدله أحد عليها. وفي النهاية تحصى النتائج فإن كانت الأكوام المكتشفة أقل من النصف، تعاد الكرة، ويبقى الفريق المغلوب مغلوباً.

لعبة الاستغماية: وهي المعروفة حتى يومنا هذا، حيث تعصب عينا أحد الأطفال وهو الذي تحط عليه الأمّاية (الدور)، وتبدأ محاولة هذا الطفل للإمساك بالأطفال الآخرين الذين يتهافتون عليه ويبتعدون مصدرين أصواتاً. وحين يمسك بأحدهم يبدأدور جديد.

لعبة البيب: حيث يطارد من تكون عليه الأمّاية الأطفال الآخرين ولكن بدون تعصيب العينين. فإن أمسك بأحدهم، يصبح الدور على الممسوك. أما إذا لمس الحَجَرة التي هي مركز اللعب قبل أن يمسك به المطارِد تستمر اللعبة. وكم من متسابق برز بسرعته في مثل تلك الألعاب.

الخوطة أو المربعات المخطوطة على الأرض: القفز على رجل واحدة واثنتين مع دفع حجرة مسطحة على المربعات المرسومة بأشكال متعددة، والخروج بتلك الحجرة من تلك المربعات، وإعادة القفز بأشكال وألوان.

لعبة الطاقيّة: يتحلق عدد كبير من الأطفال بشكل دائرة، يحمل أحد الأطفال طاقية (قبعة) أو ما شابهها، ويركض من خلف الأطفال وهو يتظاهر بأنه وضعها خلف أحدهم، ثم في النهاية يضعها خلف طفل فإن أحس به الطفل يلحق به سريعاً. فإن أمسك به يعود الدور من جديد إلى الأول. وإن ركض واحتل مكان الذي يجري فعليه الأمان . في لعبة الطاقية إذا وضعت الطاقية خلف أحدهم ودرت دورة كاملة ووصلت إليه دون أن يحس بأن الطاقية خلفه، يُمسك من أذنه ويجر، ليدور حول الحلقة دورة كاملة قبل أن يستلم الطاقية ويدور بها.

أما الألعاب التي كنا نمارسها، ونحن صغار ضمن البيوت فكانت جلها تعتمد على تقليد الكبار. وأتذكر أن أجملها كان حين نتحول أنا وصديقتي الصغيرة إلى زوج وزوجة، حيث تلبس صديقتي ملحفة أمي السوداء، ونتبادل حواراً زوجياً ظريفاً. ولكثرة الرجال الذين تعددت زوجاتهم في ذلك الزمان في عفرين، كثيراً ما كنت أمثل دور ذلك الزوج أما م ثلاثة أو

أربعة من رفيقاتي (زوجاتي الصغيرات). ماعدا ذلك، كانت تسلياتنا الفردية في البيت أي شيء يمكن أن ننفخ فيه روح الحياة، فيتحول إلى إنسان أو عريس أو عروس أو سيارة.

أما عن صحة الأطفال فقد كانت الصورة مزرية حقاً. لم يكن في عفرين كلها طبيب نسائي، أوقابلة قانونية. كانت هناك (الداية)، وهي ولاّدة شعبية ليس لها من علم الولادة إلا الخبرة المتوارثة. ولذلك فالجهل في تربية الأطفا ل كان يرافق الأطفال منذ أن يولدوا إلى أن يضحوا شباباً.

كثير من الأطفال كانوا يولدون ميتين بسبب ماذكرنا سابقاً. وإن قُيّض للباقين أن يعيشوا فقد كانت الأمراض تهاجمهم وهم صغار ليس لهم من قوة ولادواء. ولذلك فقد كانت نسبة الوفيات بين الأطفال من أكبر النسب. فإن نفذ الطفل المسكين من هذه المصائب كلها، كان الغذاء السيء والتربية الجاهلة له بالمرصاد. أبشع ما كان يطبق على الطفل حين يولد، هو (القونداق) أي القماط الذي كان يلف به الطفل ويشد ويكتّف، فيبدو كالمومياء الصغيرة، أو الدودة التي نسجت حول نفسها شرنقة لاتستطيع التحرك فيها، أو التملص منها. كانت كل حركة من حركات هذا الطفل الذي هو بحاجة إليها تخمد وتقتل. حفاضاته كانت خرقاً مستطيلة، وقد تكون قديمة متوارثة عن طفل آخر قد كبر. هذه الخرق السميكة الغليظة كانت توضع بين رجلي الطفل فتسبب له الخرع أو الكساح. هذه الخرق كانت ترفع إلى وسط الطفل وتشد على خصره بزنار قماشي رفيع، فيبدو الطفل وكأنه أصيب بالفالج. ولتنشيف بوله أو برازه كانت تهيأ له نحاتة بيضاء تحتّ من جدران مغارة قريبة من بيوت عفرين، فكل تربة عفرين وجبالها وصخورها كلسية. كانت تلك النحاتة تدق جيداً لتنعم، ثم تغربل وتصفّى ليخرج منها أنعمها. تلك النحاتة كانت تنشّف مابين رجلي الطفل، إنه (بامبرز)* الحاضر بلا منازع. وسائل حماية الطفل من المرض والموت كانت عجيبة غريبة.

---

* البامبرز: نوع أجنبي من فوط الأطفال أو حفاضاتهم.

سأذكر مرة أخرى القصة الطريفة عن سبب وشمي بثلاث دقـات زرق، واحـدة علـى أنفي والثانية على خدي والثالثة في منتصف ذقني. قالت لي أمي إن ثلاثة أطفال لها مـاتوا قبلي، وصدف وأنا في أشهري الأولى، أن خيّم القرباط في أرض جعفر غرب عفرين، وأشاعوا أن الوشم يحمي الطفل من الموت. ولذلك وشمت أنا وكل أطفال حارتنا ذكـوراً وإناثـاً. ومـن المؤكد أن أمي ماتت وهي تعتقد أني ظللت حياً من أثر ذلك الوشم.

العين إذا رمدت كانت هناك قطرة اللؤلؤ الزرقاء التي تحدثت عنها سـابقاً. الأذن إذا تألمت ينفخ فيها دخان السيجارة، فإن لم تهدأ كان يسخن الزيت ثم يفتّر وتـنفخ بـه الأذن برشات متعددة (برّه). في العشرين من عمـري وددت أن أتطـوع ضـابطاً في الجـيش (ذكـرت ذلك سابقاً). رفضت بسبب ندبات على غشاء طبلة أذني اليسرى، لعلـها كانـت مـن تـأثير الزيت الساخن الذي لم يستطع أن يسد الثقب، بل زاده اتساعاً.

السعال الديكي للشفاء منه، يجب الصعود إلى الجبل خلف عرش قيبار حيث بداية جبل ليلون، وتمرير الطفل من تلك الصخرة المدورة المجوفة سبع مرات مع الأدعية.

ذات صـباح أركبـتني أمـي أنـا وجـارتي الصـغيرة علـى حمارنـا الأبـيض الجميـل، وتوجهت بنا إلى بستاننا. منذ اللحظـات الأولى لـذلك الصـباح كانـت الآلام تفـري معـدتي. البكاء والعويل رافق رحلتنا حتى البستان ولم ينقطع رغم محاولات رفيقتي الصـغيرة تهدئـة روعي وألمي. حين وصلنا إلى البستان كان والدي هناك. ولإيقاف آلام معدتي صـنع أحجيـة غريبة: ثبّت عودين صغيرين فوق بعضيهما بشكل صليب بواسطة خيط ثم جعل الصليب في عنقي كالقلادة. ولكن الألم بقـي، وكـذلك البكـاء والعويـل، وظـل ذلـك حتـى الغـروب ولم يتوقف إلاّ حين غمرتنا أمي في طريق العودة أنا وصديقتي عاريين في مياه نهـر عفـرين أمـام نبعة تل طويل.

الدواء الوحيد العلمي الذي دووينا به حـين أصـبنا بـالجرب – معظـم سـكان عفـرين أصيبوا به – كان زهر الكبريت الذي ذوّبناه في الماء الفـاتر، وسـكبنا المـزيج علـى أجسـادنا

المبثورة بالجرب. والوقاية الوحيدة العلمية التي مازالت آثارها على ساعدي الأيمن كان التلقيح ضد الجدري (آشله)، وكان ذلك على يد المرضين جمعة وشيخو في مستوصف عفرين الوحيد في ذلك الوقت، وحتى الآن. أكثر من ٣٥٠ قرية كان مركزها الحكومي الصحي ذلك المستوصف المسكين ومازال.

حين كنا نخرج من البيوت نحن الأطفال، كنا نخرج مشعثي الشعر، لم يكن المشط يعرف طريقه إلى شعرنا . حتى الحلاق كانت لقاءاته بنا وبشعرنا نادرة. كان ذلك الشعر يطول حتى يصبح بطول شعر الماعز، حينذاك كان الوالد يقودني إلى الحلاق، وكثيراً ماكانت نمرة ٣هي المعيار المناسب لشعري الطويل ذاك، ففي ذلك راحة لي، ولأهلي ولأجرة الحلاق، حيث كنت أخرج من عند الحلاق مدور الرأس، حليقاً.

لم نكن نعرف المناديل التي يجب أن تكون في جيوبنا، لنمسح بها أفواهنا إذا أكلنا شيئاً، أو نمسح بها أنوفنا إن سالت. أذكر أن أطراف الكُمّين من ثوبي كانت دائمة قاسية كالكرتون وسخة قذرة، فقد كنت أمسح بها فمي، والأكثر كنت أمسح بها أنفي عندما يتسخ أو يسيل.

أدوات استحمامنا كانت الصابون، والليف الخيطي، والكيس الأسود الذي كنا نكرهه نحن الأطفال، بالإضافة إلى المشط الخشبي ذي الأسنان المتباعدة، والمشط العظمي ذي اللون العظمي الأنعم أسناناً والأغلى ثمناً. بعد كل استحمام ـ ولابد أن نذكر ذلك الفضل للأم ـ كان يلف حول عنقنا، أو يوضع أمامنا منديل أبيض ويمشط شعرنا الطويل بالمشط العظمي الناعم فوق ذلك المنديل الأبيض لاستخراج القمل، القمل الكبير الذي يسقط على البشكير يقتل، أما القمل الصغير الأبيض (الصئبان)، فكان يعلق بأسنان المشط العظمي حيث كان يقتل بوضعه على سطح المشط والضغط عليه بظفر الإبهام. وكان يصدر عن ذلك صوت (طقة) دالّ على أن مجرماً صغيراً قد قتل. ولجعل الشعر نظيفاً خالياً من الدهون والزفر كان في كل حمام ترابة البيلون وكانت على شكل كتل صغيرة قاسية، ولكن قبل الحمام كانت كتلة

منها توضع في الماء فتذوب وتتحول إلى طين يدهن به شعرنا. ولكن أكثر استعماله كان من قبل النساء، فقد كان الشعر الطويل هو سمة ذلك الزمان. بل كان كثير من النسوة يطوّلن شعورهن بإضافة جدايل اصطناعية إليه. لم يكن قط حلاقات أو حلاقين للنساء ليتفننوا في أشكال شعورهن.

كان هناك احتفال جميل في بداية مشي الأطفال (لنك بري). كان الأهل والأصحاب يجتمعون في بيت الطفل المحتفى به. يربط رجلا الطفل برباط بإيشارب أو قماش، وحين يفك الرباط يركض أحد الشباب ركضاً سريعاً في أي اتجاه يشاء، حيث يُرمى بحذاء أو شحاطة أو أي كندرة. المهم ألايصيب الحذاء ذلك الراكض، فإن ذلك فأل حسن على الطفل إذ سيكون عدّاء جيدًا ً أو على الأقل سيكون متزن الخطا، سريعها. بعد ذلك توزع الحلوى والطعام على المحتفلين.

الاحتفال الثاني كان في بداية ظهور أسنان الطفل، حيث تكون الأم في أوج فرحها بابنها الذي بدأ يشبه الكبار. كانت أم الطفل وذووه يسلقون القمح لتهيئ السليقة التي ستمزج بالسكر، وتوزع على المحتفلين مع السكاكر الأخرى، والأطعمة المتنوعة حيث تمتزج تلك الأطعمة بأصوات الغناء وأناشيد الفرح.

وعندما تبدأ أسنان الطفل اللبنية بالسقوط كان الأهل يوصون الطفل الذي يكون حينذاك في السابعة أو الثامنة من عمره، بأن يرمي سنه المخلوعة بكل قوة إلى سطح الدار، أو أي مكان آخر غير مطروق، ويقول: خذوا سني العظمية لتعطوني سنّاً ذهبية.

في أيام المطر والخير ـ وما كان أكثرها في تلك السنين الماضية ـ كانت هناك بعض الأناشيد الناعمة أو الترتيلات على الأصح، يرددها الصغار. يقول الصبيان (باران. . . باران بأوزيكو. خاله لساري قيزيكو): مطر مطر ملء الكشتبان، فلينثل الرماد على رؤوس البنات. فتردد الصغيرات رداً عليهم (باران... باران بزنبيلو. خاله لساري عويلو): مطر... مطر ملء الزنابيل، فلينثل الرماد على رؤوس الشباب.

النهر

النهر العظيم، نهر عفرين، شريان الحياة لمدينتي عفرين، ولكل بَناتها من عشرات القرى التي تترامى حول شاطئيه من منبعه في الشمال، إلى مصبه في الجنوب، وشريان الذكريات لطفولتنا. إننا إن قسّمنا تلك الذكريات، فإن القسمة الكبرى ستكون من حصة النهر.

مشوارنا مع النهر كان يبدأ أحياناً من ساعات الضحى بعد زوال برودة الماء ويستمر حتى غروب الشمس . كان النهر عميقاً وكبيراً، لاكما هو الآن. أتذكر أنني في أواخر الأربعينيات ذهبت مع والد صهري للسباحة في النهر. ولكي نجتازه إلى الطرف الآخر سبحنا أمتاراً كثيرة فيه، وذلك لشدة عمقه.

الصورة الأخرى التي تذكرني بعمق مياهه، كانت عند العصر، وقد أنزل بعض الشباب خيولهم لتستحم وتنظف. كانت المياه أعلى من ظهر الجياد، وكانت تلك الجياد تسبح لكي لاتغوص في النهر. وكنا نراها مدهوشين وهي رافعة أعناقها متوجسة، فنعلم أن الحصان سباح. ومثله كانت كثيرمن الكلاب والقطط تعبره سابحة إلى طرف آخر

أما عن عمق النهر تحت الجسر، فكنا نقول عنه (دنكز)وتعني بالتركية (بحر)، وذلك لشدة عمقه. ولكي أبين لك يا صديقي القارئ مدى مهارة أبناء عفرين في السباحة، أذكر لك أنني كنت في الخامسة حين كنت أسبح في ذلك البحر. بل أكثر من ذلك، كان يتقاذفني الكبار ـ وأنا الصغير ـ بدلاً من كرة الماء في أيامنا هذه.

النهر كان يمنحنا كل شيء التسلية والعافية والرياضة والأنس والاجتماع. كنا نقصده جماعات مكونة أحياناً من أكثر من عشرة أطفال لا يستر جسدهم إلا ذلك الثوب (القمباز). نصل إلى شاطئه الرملي، فنخلع ذلك الثوب لنصبح عراة تماماً، كنا قد سبقنا نوادي العراة بعشرات السنوات. حين أرى اليوم بعض صور أطفال إفريقيا أو آسيا وهم يستحمون عراة، أتذكر طفولتي في عفرين. الآن حين أذكر أمام الأصدقاء أننا لم نكن نعرف في طفولتنا القميص والكيلوت والمايوه، يضحكون. فليضحكوا... ما كان أجملها من حياة. واحد فقط من شلتنا، كان يسبح وهو يلبس (الكيلوت) وكان يبدو بمنظره ذاك شاذاً ونافراً.

كنا نسبح ونسبح، وكم من ألعاب مائية قضينا فيها ساعات وساعات في الماء: لعبة الحدود، والبيب وسكب الماء على الرؤوس. أما على الشاطئ، فالساعات كانت تقضى بصنع البيوت والحواري وغيرها من الطين اللزج، أو بالنوم فوق الرمل الدافئ لتصبح ألوان أجسادنا لوناً موحداً، لوناً برونزياً لماعاً. كثيراً ماكا ن يثير انتباهنا في الرمال تلك الحفر الصغيرة المخروطية. حتى تلك الحشرات الصغيرة التي كانت تنشئ تلك الحفر لم تكن تسلم من شرنا. كانت الحفر كثيرة، وكانت تسليتنا هي جلب الماء بأيدينا من النهر، وسكبها في تلك الحفر الصغيرة، فتضطر تلك الحيوانات الصغيرة إلى الخروج من تلك الحفر. عرفت عندما كبرت أن تلك الحشرات الصغيرة، صاحبة الحفر الرملية من أمهر الحشرات الصيادة، وأن تلك الحفر المخروطية هي مكامن وفخاخ لطرائدها. فإن وقعت نملة مسكينة في تلك الحفرة كان مصيرها القنص والموت، فكلما تسلقت الجدار الرملي محاولة الخروج انهار الرمل ونزلت النملة إلى القاع أكثر.

الحشرة الأخرى التي كنا نتحرش بها، كانت النحل. أحدهم كان قد وضع مناحل على الشاطئ، وكانت في طريق نزولنا إلى النهر، وكان هذا التحرش يؤدي إلى هجوم النحلات الحارسات علينا، ولسعنا لسعات مؤلمة. ولكن ما أن ننسى ألم اللسعة حتى نعود إلى التحرش مرة ثانية.

الشواطئ العالية كانت مقافز (رنكات) لنا، نصعد إليها ونهوي بأجسادنا في الماء. فإذا كنا نستطيع القفز من فوق جسر عفرين العالي، فلا خوف علينا من القفز من هنا. كان القفز يترافق بصيحات عالية وأرتال تتلو بعضها عارية، كما خلقها الله لتختفي بعد قليل في الماء، فتصعد من الماء فقاعات بيضاء، ثم تظهر الأجساد الصغيرة السمراء. ولا ننسى إذا كان المكان عالياً جداً وصية رفاقنا الكبار وهي وضع اليدين بين الرجلين على الخصيتين. وإلا انفجرتا.

في الأيام التي كان الأهل يسعفوننا فيها ببعض الفرنكات، كنا نقضي يومنا كله في النهر وعلى شاطئه. والغذاء يكون على الشاطئ أيضاً: بعض الأرغفة اللامعة القشيبة نشتريها من الفرن المعروف بخبزه الجيد، بطيخة صفراء أو خضراء، بضعة أكعاب من الجبن البلدي الأبيض المالح التي كنا نشتريها أيضاً. كنا نسكت بها جوعنا الشديد فنأكل بلذة وشهية بعد سباحة ولعب يستمران ساعات في ذلك النهر الحبيب. وكثيراً ما كنا نعود إلى قشر البطيخ الأصفر أو الأخضر لنكشط بأسناننا بقايا عالقة لعلها تطفئ لظى الجوع اللعين.

مناطق السباحة للأطفال في النهر قرب المدينة (عفرين) كانت محددة ومعروفة. فإن كان معنا شباب كبار فالسباحة تكون تحت الجسر. أما إذا كنا نحن الصغار وحدنا، فكان هناك مكانان آخران. أحدهما شمال الجسر بمئة متر تقريباً. عند انعطاف النهر قرب آثار جسر قديم. كان يقال: إنه كان جسراً خشبياً. ذلك المكان كان الأمتع بين أماكن السباحة، لقربه من بيوت المدينة، ولسهولة العودة إلى بيوتنا. إذ لانحتاج للمرور من أمام المخفر، ومن السوق.

أما المكان الثالث فكان في بداية الطريق الذاهب إلى تل طويل (تر طويل). بالقرب من مكان سباحتنا كانت ناعورة للأستاذ عبد الله أفندي، ترفع الماء إلى أرض غرب النهر،

وغرب الطريق الذاهب إلى تل طويل. لم يكن الشاطئ عالياً، ولكن كانت فيه بعض الصخور التي كنا نقفز من عليها إلى النهر، ونتشمس عليها هادئين مثل حيوانات الفقمة أو المورس. وما أن تسخن أجسادنا (ونشوّب) حتى نقفز من جديد إلى النهر.

أجمل وقتين للسباحة كان قبل الظهر، أو قبل الغروب. فعند الظهر نؤوب إلى البيوت لاخوفاً من حر الشمس، ولكن لإملاء بطوننا الفارغة. أما إذا تيسر لنا غداء على شاطئ النهر، فلم يكن الوقت يهمنا ولا حرارة الشمس.

مياه النهر كانت نظيفة صافية. وكثيراً ما كنا نشرب منها إن كنا بعيدين عن النبع الذي كان يقع في الشاطئ الرملي شمال الجسر، قريباً من مكان سباحتنا الثاني. ولشدة صفاء المياه كنا نرى قعر النهر بوضوح ولذلك كانت أمي توصيني حين نجتاز النهر ألا أنظر إلى الماء، لكي لاأدوخ. وكعادة الأطفال في رفض وصية الأهل، وتجربة كل شيء بأنفسهم. كنت أنظر إلى قاع النهر فأدوخ حقاً، وتدور المياه من حولي، وأدور معها، فأرفع نظري إلى السماء، أو إلى الأمام إلى الأرض المستقرة أمامي.

الأسماك كانت كثيرة في النهر، وكانت تستفيد من صفاء المياه، فترى أجسادنا العارية ونحن نسبح فتحسبها قطعاً من الفرائس واللحم، فتعض إلياتنا حاسبة أنها حصلت على طعام دسم. فنضحك لدغدغات تلك الأسماك الصغيرة ومداعباتها.

أجمل الصور الجميلة العالقة بذهني عن النهر كانت وقت الغروب. الصورة الأولى كانت للخفافيش وهي تطير باحثة عن صيدها. فتقترب منا حتى نظن أننا سنلمسها بأيدينا، ولكنها قبل سنتمترات قليلة، تنحرف وتبتعد عنا. كنا نطير معها من الفرح ونركض يميناً وشمالاً، ونحن نلحقها بعد أن تبتعدعنا. أما الصورة الثانية، فكانت لأبناء وبنات عفرين جالسين على الشاطئ الرملي، يمتعون النظر بمياه النهر الذي يرسم مع تلاوين الغروب، آلاف اللوحات الرائعة. ويودعون مع آخر شعاعات الشمس الذهبية يوماً من أيامهم.

هذه الصور الجميلة للنهر كانت تعكر وتشوش أحياناً بأخبار محزنة. فنستغرب

كيف يفعل النهر فعلته تلك، وهو الوديع الهادئ اللطيف. الصورة الأولى كانت حين بحثوا في النهر، عن طفل غريق في الثانيةعشرة، فوجدوا جثته في منطقة صخرية، بعيدة عن مناطق سباحتنا الآمنة. لم يكن الطفل من أبناء عفرين. كان غريباً من قرية تقع شمال عفرين. في طريق العودة إلى القرية أحب ومن معه أن يسبحوا فنزلوا في النهر في منطقة غير معروفة، مليئة بالصخور. علق الطفل بين الصخور وغرق دون أن يحس به رفاقه، وحين افتقدوه بحثوا عنه ، ولكن دون جدوى.

الصورة الثانية كانت لشاب أرمني غرق في النهر في ميدا نكي، وقد أحضر في سيارة تكسي إلى مستوصف عفرين لإسعافه ولكنه كان قد فارق الحياة. رأيناه في السيارة بانتظار فحصه من قبل الطبيب الشرعي . لم أكن في البداية أعرف أنه ميت. ظننت أنه نائم أو في غيبوبة. في كل سنة كان النهر في ميدا نكي يبلع في شراقاته ضحاياه ويقذفهم غرقى.

هاتان الصورتان لم تستطيعا أبداً، أن تؤثرا على صداقتي المتينة مع النهر. فالذنب ليس ذنب النهر بل ذنبهم. هم لايعرفون السباحة، ولا يعرفون خفايا هذا النهر وخصائصه. وهانحن الصغار نتعامل مع النهر بكل صداقة ولطف ، فيقابلنا بصداقة ولطف دون أن يؤذي واحداً منا.

أتذكر تلك الأيام، وأقول في نفسي: كيف لم يكن الأهل يسألون عنا، طوال تلك الساعات العديدة، وتلك الغيابات الطويلة. أختي الكبرى فقط كانت تخاف من سباحتي في النهر، وتكره ذلك. وكثيراً ماكنت أكذب عليها، وأخفي خبر سباحتي عنها. ولكن كان لها طريقة في كشف كذبي. إذكانت تمرر ظفرها على ساقي فإن ظهر أثر أبيض. علمت أن جسمي مازال نديا، وأنني قد سبحت، وأنني أكذب.

في البستان كنا نستحم في الهواء الطلق على ضفة نهر عفرين الذي كان يمر بجوار بستاننا، قرب قرية آستير. كان البستان يقع تماماً قبالة جسر القطار قبل محطة قرط قولاق، حيث يرتفع أمامنا جبل حنة. كانت أمي تضع ثلاث حجرات كبيرات، من

حجارة النهر الملساء، وتضع عليها وعاءها (حلّتها) النحاسي الأسود، ثم تملؤه من مياه النهر. أما الحطب فمن الشجر الميت في البستان. سرعان ما كان الماء يغلي، فتمزجه بماء النهر لتبرده قليلاً في وعاء من ثمر القرع اليابس المجوف، ثم تسكبه فوق رؤوسنا وأجسادنا العارية. يدفأ الجسد هنيهات، ثم مايلبث أن يبرد برودا شديداً منتظراً السكبة الثانية.

أظن أن أمي قد سكبت علي مرة الماء ساخناً، ناسية أن تبرده فلذعت جسدي لذعاً لايمحى أثره. حتى الآن عندما أسكب على جسمي في الحمام ماءذا حرارة زائدة عن الحد الطبيعي ، أشعر بتلك اللذعة المؤلمة، وترتسم أمامي في كل مرة، صورة النهر، وأمي، والحطب المشتعل والنهر الجاري على قرب خطوات مني والهواء العليل الذي يلفح كل جزيئة من جسمي الصغير العاري.

من الصور التي أتذكرها: أمي وصديقتها في البستان، تسخنان الماء في الحلة السوداء، وقد خلعتا ثيابهما وبقيتا في ما يشبه قميص النوم. الوقت سنوات الحرب العالمية الثانية. سمعنا أزيز طائرة، ثم رأيناها محلقة عالياً. قالت أمي لصديقتها (إيمنه) إنها طائرة الإنكليز. ثم ركضتا واختبأتا بين الأشجار مخافة أن يخطفهما الطيار. كان مايتردد بين الناس، أن الجنود الإنكليز يغتصبون النساء ويجامعونهن وهم يُلبسون أعضاءهم التناسلية أكياساً مطاطية.

التسلية المتعة الأخرى في النهر كانت الصيد، الصيد بالصنارة. وكيف كانت الصنارة (الشص)؟: عصا ليست طويلة نقطعها من أي شجرة، تكون العصا مستدقة في الأمام، ثخينة نوعاً ما في الخلف. ثم خيط من النايلون. وكنا نسميه وتراً. نربطه جيداً بالرأس المستدق من العصا، ونلفه لفات عديدة لنرخيه متى نشاء في النهر، أثناء الصيد. الطرف الثاني من الوتر نعلق فيه (الصنارة)، وهي حديدة معقوفة تنتهي برأس حاد له نتوء ممتد إلى الخلف. فإذا دخل الرأس الحاد في فم السمكة منعها النتوء من الإفلات. يلف الوتر لفاً فنياً على (الشنكل) الصنارة حيث يبقى الشنكل متدلياً في الماء بشكل عمودي. فوق

الصنارة أو الشنكل بعدة سنتمترات نضع بعض قطع الرصاص الذي كنا نحصل عليه من تذويب الرصاص الذي تختم به الأشياء. وكان متوفراً في كثير من البيوت. فكثيراً من النسوة كانوا يذوبونه في مقلاة على النار، فتتشظى إلى أشكال غريبة. كان يقال إنها تصيب العين الحاسدة، وتبطل تأثيرها على المحسود. المهم نحن كنا نثبتها على الوتر فوق الشنكل، لتغوص الصنارة في الماء حيث ثقل الرصاص. فوق الرصاص كانت فلينة مثقوبة يمرر منها الوتر. كان الحصول على الفلينة سهلاً، فجميع زجاجات الخمر وغيرها كانت تسد بالفلينة. الفلينة كانت مؤشر الصنارة، فإذا داعبت السمكة الطعم الموجود برأس الصنارة أو علقت بالصنارة، اهتزت الفلينة أوغطست في الماء، وانشدّت. وكانت الفلينة تعيّر على الوتر فترفع أو تخفض حسب ضحالة الماء أو عمقه. في البداية كنا صغاراً، وكانت خبرتنا في الصيد قليلة، لذلك كان طعم صناراتنا من العجين الذي كنا نصنعه من الطحين الذي كان متوفراً في كل بيت في عفرين. وكانت الأسماك التي تقبل على الطعم (العجين) صغيرة لايتجاوز طولها عشرة سنتمترات . كنت صياداً ماهراً وكنت أخرج للصيد مرتين في اليوم: في ساعات الضحى وساعات ماقبل الغروب. وكان المكان المفضل للصيد لنا نحن الصغار هو قرب بستان البلدية شمال الجسر. بستان البلدية مايزال حتى اليوم يصدّر الغراس الصغيرة إلى كل مشاتل عفرين الخاصة والعامة . السمكات الصغيرة التي كنت أصطادها، كنت أعلقها على عود صغير. أدخل العود من غلاصمها ليخرج من أفواهها. كنا نترك في نهاية العود عقفة أونصلة خشبية كي تعلق السمكات به.

أمي كانت قد ملت من صيدي، وسمكاتي التي لاتجدي نفعاً ، بل تملأ البيت كله بالزنخ ورائحة السمك. أما قطّنا الصغير الأبلق ذو الذيل المكسور المعوج، وكنا ندعوه (جوناكاه). فكان يرحب بي وبسمكاتي على الدوام، فوجبته الدائمة كانت فاخرة جداً: إنها السمك. ولكن حتى القط كان يعاف السمك أحياناً، فيشبع بسرعة تاركاً باقي وجبته، ليجتمع عليه النمل والذباب وتفوح منه الرائحة الزنخة، وهو ما كان يثير حنق أمي وغضبها.

أعظم فرحة عشتها كانت في صبيحة يوم أربعاء يوم بازار عفرين. كنت أصطاد شمال الجسر قريباً من البازار، وكان ما اصطدته يبلغ الكغ من السمك تقريباً. وإذ برجل يبحث عن سمك ليشتريه، فقد أوصى الطبيب السمك طعاماً لزوجه المريضة. بعته السمكات، وأنقدني ليرة وربع الليرة كان ذلك المبلغ ثروة كبيرة لي أنا الطفل الصغير، حيث كان أجر العامل في كل نهاره ليرة ونيّف. ركضت بتلك الثروة إلى أمي لأبين لها أن الصيد ليس بدون نتيجة. أخذت أمي الليرة، وتركت لي الربع، لتملأ قلبي بالسعادة والحبور.

حين كبرت قليلاً، أي أصبحت في العاشرة أو أكثر قليلاً، ازدادت خبرتي بالصيد، فلم يعد الطُعْم الذي أستخدمه للصيد من العجين. بل أصبح دودة الأرض، أوأحشاء السرطان، أو السمك الصغير المقطع. ذات صباح أخبرني صديقي شيخو أن الصيد في غول (Gol) كرسانة رائع، وأن السمك هناك كثير – كرسانة لاتبعد عن عفرين أكثر من ثلاثة كم ـ قطّعت السمكات الصغيرة التي اصطدتها إلى قطع صغيرة، لأجعلها طُعْماً، وذهبت مع شيخو الذي كان والده يعمل في أرض في كرسانه. وقفت على الجرف أصطاد، أما شيخو فقد ذهب إلى والده في الأرض القريبة. كان الوقت ظهراً. الشاطئ المقابل كان مستوياً، سهلاً. وفي ذلك الوقت كانت تستريح فيه قطعان من الغنم مع رعيانها بعد الارتواء من النهر

لم تمض لحظات حتى اختفت الصنارة تماماً، وأخذت تنشدّ إلى الأمام. سحبت الصنارة بمهارة وأخرجت صيدي إلى البر. ولكن ماذا أرى . كان صيدي أفعى طويلة تتلوّى عالقة بالصنارة. أنزلتها على الأرض، تلوت . لم أجرؤ على الاقتراب منها، وفكّها من الصنارة. فلاشيء يرعبني، ويهز كياني أكثر من الأفعى، وبدأت بالصراخ بأعلى صوتي: أمي... أمي. آه ولكن أين أمي؟. عرف الرعيان في الطرف الآخر أنها سمكة الأنكليس، أو الحنكليس وصرخوا: لاتخف... إنها سمكة. ولكن لاحياة لمن تنادي، الخوف أصمّ أذنيّ، وشلّ حواسي. رميت السمك (الأفعى) عدة مرات في الماء، ثم على الأرض. لعلها تفلت، ولكنها بقيت عالقة. أخيراً صعدت الجرف إلى الأرض المستوية العالية ممسكاً بنهاية عصا

الصنارة، جارّاً كل شيء خلفي. كان شيخو قد وصل إليّ لنجدتي بعد أن سمع صراخي، فأمسك بالأفعى (السمكة) ـ وهو الخبير ـ دون خوف، أمام دهشتي، وعينيّ الجاحظتين، ناظراً إلي بسخرية. قال شيخو: يا أحمق، إنه أروع صيد، فقليلون من يكون حظهم هذه السمكة ذات اللحم الأبيض.

بعد هذه التهدئة عاد إليّ روعي وهدوئي، فعدت إلى النهر وإلى الصيد وكان حظي في ذلك اليوم وافراً فقد كانت السمكة الثانية سمكة كبيرة سوداء وكنا نسميها (أبوشوارب) لوجودشعيرات طويلة على طرفي فمها. الصيد الثالث كانت سلحفاة فككتها عن الصنارة وكدت أعيدها من جديد إلى الماء، لولا أني تذكرت أن أختي قد أوصتني على جزء من ذيل سلحفاة لتيبّسه وتعلقه مع التعاويذ الأخرى على كتف ابنتها لحمايتها من الأمراض. تعاونّا أنا وشيخو على قطع جزء من ذيل السلحفاة التي دافعت عن نفسها بإصدار روائح كريهة من جوفها كادت تدوخنا بها.

عندما عدت وشيخو من كرسانة، تعمدت أن أمر بشارع جند يرس، ثم صعوداً بشارع راجو لكي يراني كل أصحاب الدكاكين، ومعارفي وأقاربي، ويروا صيدي وخاصة سمكتي العجيبة التي كانت تبلغ في طولها طولي تقريباً، ود البعض شراء صيدي ولكني أبيْت. لابد أن أري ذلك للأهل.

حين وصلت إلى البيت فرحاً ظننت أن الفرح سيملأ قلب أمي أيضاً. ولكن ردها كان كما الردود السابقة. لم ترض أن أدخل الصيد والزنخ إلى البيت. ذهبت خائباً إلى الدكانجي جندو جارنا لأبيعه السمك بثلاث فرنكات فقط. أعطاني بتلك الفرنكات الثلاثة (كافي حلاوه) رغوة الحلاوة، وهو ما يسمى (الناطف). الفرح كان عند أختي التي حققت رغبتها، فقد أحضرت لها ذيل السلحفاة النهرية لتمنع الأذى، والمرض والعين الصائبة عن بنتها.

كثيراً ما كان صيدنا طريفاً، فلم تكن السلحفاة وحدها هي التي تعلق في الصنارة، فكثيراً من المرات تتمسك بالطعم سرطانات، لاتفلته، رغم إخراجها من الماء ووضعها على

البر. مرة علقت بصنارتي مشيمة مرميـة في المـاء وكانـت دهشـتي كـبيرة مـن هـذه الأحشـاء اللحمية التي ماكنت أعرف عنها شيئاً.

الطريقة الأخرى للصيد كانت بالديناميت، وكانت طريقة خطرة علينا نحـن الأطفـال، وعلى السمك. كنا نشتري الديناميت من السوق من دكان حمـو مجيـد، بـائع لـوازم السـلاح، وكنا نشتري منه الفتيل والكبسون، نغرس الفتيـل داخـل الكبسـولة، ثـم نغـرس الكبسـولة في جسم الديناميت اللين، بعد ذلك نربط المتفجرة تلك بحجرة ربطاً جيداً، لترسو في قـاع النهـر. نشعل رأس الفتيل بسيكارة ثم نرمي الديناميت في الأماكن التي كنا نظن وجود السمك فيها.

مرة كان الصيد مفرحاً، فما أن تفجر الديناميت، حتى طفت على سطح الماء أسمـاك صغيرة عديدة، بعضها كان مايزال يتحرك دائخاً. ثم طفت بينها سمكتان كبيرتان مـن نـوع (البني) جميلتان عنقاهما ملونان بألوان زاهية مثل ألوان ذكر البط الجميل. من شـدة فرحـي بهما خضت النهر لالتقاطهما ناسياً أن أخلع حذائي وبنطلوني. كانت وجبة شهية لنا حين شويناها، وعصرنا عليها بعض الليمون.

أما المرة الثانية فكانت مصيبة. كنا قد خلعنا ثيابنا اسـتعداداً للنـزول إلى النهـر بعـد الانفجار، لالتقاط السمك. رمينا الحَجَرة ومعها الديناميت، ولكن الحجرة أفلتت، وهوت في الماء، وظل الديناميت طافياً على السطح والفتيلة تدخن، ثم أنفجر محدثاً دوياً هائلاً ضجت له مدينة عفرين كلها. حملنا ثيابنا وجرينا بأسرع مانستطيع، شبه عراة، لائـذين بـالفرار، خائفين من ملاحقة الشـرطة. اختفينـا بـين الأشـجار القصـيرة علـى شـاطئ النهـر بعـد أن اجتزناه إلى الطرف الثاني. بقينا مختبئين نرتعد خوفاً أكثر من سـاعتين، إلى أن أمّنـا علـى أنفسنا من شر اللحاق بنا.

هذا النهر الحبيب إلى قلبي، ملأ ماضيّ وذاكرتي، وعمري بأنسـه ولطفـه ووداعتـه، وإن كان يزبد ويعربد في الشتاء وتحمر عيناه، فلاشغل لنـا معـه في الشـتاء، شـغلنا معـه في الصيف حيث تستريح أجسامنا في وداعة مياهه، ودفء رماله، وصفاء روحه وسمائه.

الماء

رغم أن عفرين كان لها شريانها المائي العذب، وهو نهر عفرين، الذي كان يحتضن الطرف الشرقي من المدينة حينذاك، فقد كانت المدينة محرومة من مياه الشرب العذبة. الصنبور العمومي الوحيد الذي كانت عفرين كلها تشرب منه، كان في زاوية أرض البازار الشمالية الغربية. وفي وسط أرض البازار، قريباً من سور الحديقة العامة، ودار السراي كان ينتصب خزان الماء الإسمنتي عالياً على قوائمه الأربعة الشامخة وكنا نسميه (بومبي آفي) أي مضخة الماء. كان للخزان ثلاثة قساطل (أنابيب) معدنية ذات قطر ثخين، تستند إلى قوائم الخزان: قسطل يمتد تحت الأرض قادماً من محطة المياه التي كانت عند المسلخ، شمال الجسر بقليل، ويعلو ليدخل إلى الخزان جالباً المياه إليه، وقسطل ينزل من الخزان ممتداً تحت الأرض أيضاً، آخذاً المياه إلى صنابير المياه القليلة في عفرين. أما القسطل الثالث فكان ينفتح في أسفل الخزان على أرض البازار، أعتقد أنه كان لتصريف الماء الزائد عندما كان يفيض الخزان بالماء. نضع أحياناً آذاننا على أحد هذه القساطل، فنسمع صوت الماء المندفع إلى الخزان، فنعلم أن رشيد اللوكسجي يدير مضخة المياه في المحطة لتدفع المياه إلى الخزان الكبير. أعتقد أن الخزان كان يغذي في ذلك الوقت دوائر الدولة فقط (السراي ـ المخفر ـ المدرسة ـ المستوصف ـ دار القائم مقام ــ الحديقة العامة) بالإضافة إلى الجامع والصنبور (الحنفية) العمومي.

وكنا نصغي أحياناً إلى القسطل الثاني فنسمع صوت الماء النازل الذي سيتوزع على تلك الأماكن. كان للخزان سلم معدني يمتد إلى سطح الخزان، وكنا نتعجب من شجاعة أولئك الرجال الذين كانوا يصعدون ذلك السلم إلى الأعلى ليدخلوا إلى جوف الخزان ويقوموا بتنظيفه وصيانته.

التزاحم على الحنفية العمومية كان يصل إلى ذروته قبل الغروب، حيث كانت تجتمع عليه كل صبايا عفرين لنقل الماء إلى بيوتهن، بالإضافة إلى السقائين الذين لاينفكون

ينقلون المياه طوال النهار. و كـثيراً مايسـمع المـارون مـن هنـاك قرقعـة القـواديس والتنكـات وصيحات الغضب والاستنكار. ويكون السبب أن أحـدهم أو إحـداهن يريـد اغتصـاب دور الآخر. لماذا الزحمة قبل الغروب؟. لأن عفرين مازالت قريـة، قريـة كـبيرة، ومازالـت عادات الريف وأخلاقه، مرتسمة في أذهان أهالي عفرين ومشاعرهم، فالوجبة الرئيسـية هي عند الغروب، وتنظيف البيت ورش باحته وتكنيسه، وسقي الـورد والشـجر، كلـه عنـد الغروب. حتى الشمس تذهب لتأتي بالماء. فالغروب هو (روه آفا).

المحطة القديمة لضـخ الميـاه

حين كنت أرى ذلك المنظر نفسه تقريباً، منذ مـدة ليسـت بالبعيـدة، منظـر الصـبايا يملأن قواديسهن من نبع قرية باسوطة، كنـت أتـذكر عفـرين وطفـولتي والتـزاحم، وقرقعـة التنكات والقواديس، وصياح السقائين الممتزج بصرخات الفتيات، وغضبهن وحنقهن.

السقاؤون في عفرين كانوا السـفن المائيـة الصـغيرة الـتي تعمـل طـوال النهـار، مـابين البيوت والحنفية العمومية. كان الحمار وسيلتهم في النقل، وكان يوضع على الحمار تنكـات أربع، تتوضع في أقفاص معدنية صنعت خصيصاً لتلك الصـفائح، تنكتـان مـن كـل طـرف .

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

يتوضع الحمل على ظهر الحمار، أما الطرفان القفصيان فكانا موصولين ببعضهما بسلسلة معدنية قوية . كان في عفرين أكثر من سقاء، ولكن أشهرهم كان توفيق السقّاجي. أعتقد أنه كان هناك اسم آخر في ذلك الكار، وهو عبد الرحمن السقّاجي. بيتنا كان يستهلك في كل يوم عادي نقلة أوحملاً واحداًمن توفيق أوعبد الرحمن ، وكان مع كل واحد منهما قلم رصاص، لاليكتبا به، فلم يكونا يعرفان الكتابة، بل ليرسما به خطاًعلى حجر باب دارنا الأبيض لكل حمل أتيا به . في يوم البازار أوفي يوم الحمّام، أو يوم غسيل الثياب، كان الحمل حملين والخط الرصاصي على الحجر الأبيض خطين.

كان السقاؤون يدبون بأحمالهم في شوارع عفرين الترابية أحياناً، والصخرية والحجرية أحياناً أخرى، حاملين الماء. ضرورة الحياة إلى كل بيت وكل مكان. أمام بيتنا كان الشارع يرتفع صعوداً فجأة بكل وعورة. وكم من مرة كبا الحمار في تلك (الطلعة) بحمله ووقع الحمل والحمار، ولكن الأمور ماتلبث أن تعود إلى مجاريها، والأحمال تستمر من جديد.

في الشتاء كنا نستغني عن الماء وعن نفقات المياه، فالمطر والمزاريب كانت كفيلة بأن تملأ كل الأواني النحاسية الكبيرة والصغيرة، بل تفيض في أحيان كثيرة، وتزيد فتنسكب في أرض الدار. الفرق الذي كنا نشعر به بين ماء السقائين وماء المطر، أن الصابون لم يكن يرغو جيداً مع ماء المطر.

جلي الأواني في ذلك الزمان كانت مهمة صعبة، فلم تكن حنفيات، والمياه نادرة وغالية. المادة الوحيدة للتنظيف كانت الصابون، وكانت النسوة يعتمدن بشكل رئيسي على الرماد المتبقي من كانون المطبخ (بخاره)، أومن رماد المنقل الشتوي. كانت الأواني تفرك بذلك الرماد، لتذيب كل المواد الدهنية العالقة بها. أما غسيل الثياب، فكان يعتمد على الصابون فقط، والثياب البيضاء كانت تغلى فترة طويلة في ماء ممزوج ببقايا الصابون (برافْك). أما الثياب الوسخة جداً فكانت تغسل على شاطئ النهر، و توضع على حجر كبير أوصخرة، ثم تنهال عليها المرأة بمدقة خشبية كبيرة (ميتوك)، وذلك لطرد الأوساخ منها، إنها طريقة القوة النابذة بدلاً من غسالاتنا الحالية.

الثياب

ماذا كانت تلك الثياب؟. بالنسبة للمرأة كان الفستان، والقميص الداخلي الذي لايختلف كثيراً عن الفستان، سوى أنه من قماش قطني أنعم، ثم السروال الداخلي، وكان فضفاضاً له دكة مطاطية على الخصر، ودكتان مطاطيتان صغيرتان تتوضعان فوق الركبة تماماً. وكانت الفساتين طويلة، فإن انحسرت قليلاً عن أعلى الركبة كان السروال الداخلي والدكتان الصغيرتان بالمرصاد. سراويل النسوة المسنات كانت طويلة تنزل الدكتان رخوتين حتى أعلى القدم والعرقوب. على الرأس كان الإيشاب. بعض النسوة كنّ يلبسن الملاية السوداء عند خروجهن إلى السوق مقلدين المرأة الحلبية العفرينية . أتذكر أن أمي كان لها ملاءة تلبسها حين خروجها إلى البازار، أو مرورها بالسوق.

أما ثياب الرجل العفريني، فكان القميص الخارجي وفوقه الجاكيت، من الأسفل السروال أوالشلوار الأسود الذي كانوا يتفننون في شكل فتحته عند الساق، سحّاب للفتحة أو أزرار سوداء لامعة جميلة. تحت القميص الخارجي كان القميص الداخلي وكان أبيض اللون طويلاً يمتد فوق سروال داخلي أبيض أيضاً طويل على شكل السروال الخارجي، فتحته عند الساق لها ربّاطان للربط. كان في الحقيقة البيجاما الدائمة، فما إن يخلع الرجل جاكيته وقميصه وسرواله، حتى يكون في بيجامته البيضاء التي تشبه تقريباً اليوم ثياب الهنود أو الليبيين.

على الأغلب كان الرجال الأكبر سناً، هم الذين يلبسون الجاكيت فوق القميص وأحياناً يلبسون تحت الجاكيت صدرية (جيليه). معظم سراويل العرب من أهالي عفرين، كان لها عند الخصر دكة (حبل رفيع) طويلة، تشد وتربط عند لبس السروال. أما سراويل الأكراد، فكانت ذات أزرار عند الخصر كالبنطلون. فتحات الرجل في السراويل العربية كانت واسعة دون شق، ودون سحاب أو أزرار فكان السروال يخلع دون فك أزرار أو سحاب. أما على الرأس، فقد كان العربي البدوي مايزال يحتفظ بسمته البدوية العربية: العقال والكوفية. أما الباقون من عر ب وأكراد فكانوا يلبسون أغطية رأس متنوعة: من

الكوفية العادية، إلى الكوفية الملفوفة على الرأس، إلى الطربوش الأحمر، فالقلبق الأسود القوقازي أو التركي. لكن معظم الأكراد كانوا يلبسون في ذلك الوقت الطاقية البيضاء المثقوبة المحيكة من خيوط التنتنه (كُم قلك)، وكانت تنتهي من الأعلى بكتلة من الخيطان، كالطابة الصغيرة دون حياكة (بسكل)، وكان يلف حول الطاقية شال من الصرما الملونة الناعمة. كم وكم من الأغاني كانت تتغنى بتلك الثياب النسائية، أو الرجالية..!! أذكر في طفولتي أ ن أغنية ألّفت ضد الذين بدؤوا يتخلون عن الـ (كم قلك أو كم سبي).

في القرى كثيرمن الأكراد كانوا يضعون على رؤوسهم العقال والكوفية، مثلاً أبناء قرية جويق كانوا يضعون العقال والكوفية، وكان لعقالهم عقفة من الأمام. كانت تلك الأزياء مظاهر يفتخر بها لا بسوها، فالبدوي بعقاله، والكردي بطاقيته، والحلبي بطربوشه الأحمر

في تلك الفترة بالذات بدأ الشباب يتزيون بالأزياء الحديثة، فقد خلعوا (الطواقي) القبعات، وسرّحوا شعرهم وطوّلوه، ولّعوه بملمّع ومجمّد اسمه (بريانتين)، وكان ذالون أصفر، ورائحة زكية. بعد ذلك جاء مثبّت آخر، أبيض اللون اسمه (بريل كريم) وقد استعملته وأنا فتى. خلع الشباب السروال ليلبسوا البنطلون. أزياء حديثة أخذت تغزو شباب وشابات عفرين. الجديد في زينة الشابات كان في استعمالهن الحمرة (أحمر الشفاه) والبودرة، وكوي الشعر لتحويله إلى شعر مجعد. أما الكحل فقد كان زينة قديمة. وكانت النسوة مايزلن يستخدمن الكحل العربي، الذي كنّ يحصلن عليه بإشعال فانوس وتسليط ناره من الأعلى على صفيحة معدنية، ليتجمع عليه (الشحوار) الكحل، ليذرّ بعد ذلك في المكحلة، فتزين بها العيون بواسطة المرود (الميل)وهي حديدة كالعود توضع داخل المكحلة. كانت النسوة تتفاخر بمكاحلهن. عند تنظيف الوجه من الشعر كنّ يفركن الوجه، ومافوق الشفتين بالرماد، ثم يأخذن بنتف الشعر بالملقط. هذا مارأيت أمي تفعله في يوم ما. أما نتف الحاجب فكانوا يتفنّنون فيه، ليحولوا ذلك الحاجب إلى أشكال متنوعة ، فمنه الرفيع ومنه الثخين، ومنه الطويل ومنه القصير كما هو الحال في زماننا الآن.

لقد حارب المجتمع العفريني أولئك الشباب الذين تمردوا على الأزياء القديمة السائدة، حين خرجوا بالشعر المسرح الممزوج بالبريانتين أو البريل كريم، ولبسوا البنطلون الذي يظهر قامتهم وتناسق أجسامهم، لقد حاربوهم، ونعتوهم بأبشع الصفات، والأخلاق. وأوصلوهم حتى درجة الانحلال الخلقي والفسق الجنسي. وكانت المعركة تشتد أكثر حين تخرج فرق الكشافة بأزيائها، وبخاصة البنطلون القصير الذي كان يكشف عن أفخاذ أولئك الشباب وسيقانهم.

الأخوّة الإنسانية

عفرين تلك البلدة الصغيرة، كانت بوتقة إنسانية تنصهر فيها كل القوميات والملل والأديان التي تعيش فيها. كان الأكراد السنة يشكلون الغالبية العظمى من سكان عفرين، وكانت بيوتهم تتوزع في كل المناطق المعمورة من مدينة عفرين. إن جميع هؤلاء الأكراد الذين استوطنوا عفرين، انحدروا إليها من قراهم، بعد أن أصبحت عفرين مركزاً لتلك الأعداد الهائلة من القرى والمزارع. وكان جميع هؤلاء الأكراد يتكلمون اللغة الكردية، أما العربية فلم يكونوا يتقنونها، بل كانوا يتكلمونها بصعوبة بالغة، وخاصة أن عهد الصبيان والشباب بالمدرسة كان لايتجاوزالسنوات القليلة بين هؤلاء الأكراد كانت هناك بضع عائلات علوية، نزلت إلى عفرين من القرية العلوية الوحيدة (معبطلي). أما الإيزديون فكانوا أكثر عدداً من العلويين، أسر عديدة منهم استوطنت عفرين نازلة من قراها القريبة، وخاصة عرش قيبار وفقيرا وقسطل جندو وترنده وغزاوية وغيرها. ومن بين الأسر الكردية كان هناك الكوجر. كان يقال لنا حينذاك إنهم كانوا من القبائل الرحّل التي كانت حياتها تعتمد على تربية المواشي والاعتناء بها.

أما العرب فكانوا فرقاء متعددين: العرب الذين ينتمون إلى عشائر أو أفخاذ عربية. وكان أكثرهم من العميرات، والقليل منهم من البوبنّا والعجيل. أما العرب الآخرون، فكان بعضهم حلبيين تركوا مدينتهم حلب بحثاً عن الرزق في تلك المدينة الصاعدة مثل آل الدهني

والزيتوني ومشنطط وأنابلي وعجم وغيرهم. وبعضهم من الريف الحلبي، مثلاً من دارة عزة وترمانين والدانا ونبل. وكانت هناك عائلة حموية وهي صاحبة محل الألبان المشهور في عفرين. بعض العائلات الأخرى قصدت عفرين بعد سلب لواء إسكندرون، مثل عائلة عجان

الأرمن كانوا يشغلون في عفرين مساحة اجتماعية وجغرافية كبيرة حتى السنة التي دعاهم فيها ستالين إلى أرمينيا السوفييتية. حينذاك باعوا بيوتهم وأشياءهم المنزلية، وغادروا عفرين كما ذكرت سابقاً، فقل عددهم ولم تبق منهم إلاأسر قليلةجداً، ثم رحلت تلك الأسر الباقية أيضاً إلى حلب، بقيت لبعض هذه الأسر مصالح في عفرين، وقد ظلوا مداومين على تلك المصالح حتى يومنا هذا، مثل هاروت، وأولاد نوريك وغيرهم.

ليس هدفي من هذا الاستعراض التوثيق. فليس هدفي من الكتاب كله التوثيق التاريخي أو الجغرافي، بل هدفي التوثيق الاجتماعي للعادات والتقاليد، والفولكلور الشعبي، التي كانت تسود عفرين في تلك الأزمنة. إن ذكري لتلك الجماعات المتعددة هو مدخل للحديث عن الحياة الاجتماعية والعلاقات الإنسانية التي كانت تسود بين تلك الجماعات والملل والأقوام. لقد كان الجميع يعيشون في عفرين ضمن بيت اجتماعي كبير واحد، لافرق لعربي على كردي، ولامسلم على مسيحي، ولاإيزدي على علوي. إن الصور التي مازالت عالقة بذهني تدل بكل جلاء على ما أقوله وتثبته.

إن الجيران الذين كانت دارهم قبالة دارنا، كانوا من الأرمن. ومن استعراض الذكريات القديمة أرى أن العلاقة كانت رائعة في ما بيننا على جميع مستويات الأسرة، فوالدي ووالدتي كانا على مودة وسهرات لاتنقطع مع رب الأسرة الأرمنية وزوجته. أما الصبايا والشباب، فكانت علاقاتهم المتشابكة تملأكل لحظات حياة الأسرتين. حتى الصغار كانوا يعيشون الأجواء نفسها.

جارنا الثاني قبالتنا كان من العميرات ـ بيت مصطفى النعسان ـ كنا نكوّن مع تلك الأسرة أسرة واحدة تعيش حياتها المشتركة في السراء والضراء. وكانت زوجته (خالتكي

حليمه) كردية من كرز يله، وقد أرضعت أكثر أبناء أسرتي ـ وأنا من بينهم ـ فكنا إخـوة في الرضاعة، حتى أسماء الأولادمن الأسرتين كانت متشابهة: فاطمة... جمعة... لم يكن العـم مصطفى يشتري شيئاً من البازار من طعام أو سواه، إلا ولنـا حصـة فيـه. البيـت الـذي كنـا نسكنه، اشتريناه منه بشروط سهلة. أتذكر ذلك الدفء والحميمية في كنف تلك الأسرة، فكم من ليال نمت فيها عندهم، وكم من صباحات وقفت فيها مع أولادهم عند توزيع الخرجيـة الصباحية، ليكون لي حصة من ذلك.

بيت أوسه ماباتي علويون من معبطلي، ورغم الدعايات المغرضة الـتي كانـت تنشـر عن أهل معبطلي وطقوسهم، فقد كانت أختاي الصـبيتان تعيشـان مـع بناتـه الأربـع حيـاة الإخوة، والأسرة الواحدة.

في صف دارنا وغربه، كانت تقيم أسـرة حلبيـة ـ بيـت زكـي مشـنطط ـ ورغـم قلـة معرفتنا للغة العربية والحديث بها، فقد كانت أختي المتعلمـة، الصـديقة القريبـة جـداً مـن ابنتهم المتعلمة الجميلة.

خالي هجر زوجته وكانـت قريبتـه، ليتـزوج عربيـة مـن العمـيرات، ويعـيش معهـا السنين الطويلة، ومازالت تلك الزوجة في دار الخال، بعد أن فارق الخال الحياة.

التسامح الديني في عفرين لم يكن له حدود: شريكنا في بستاننا طيلة خمس عشرة سـنة كان إيزدياً، ورغم أن والدي كان متديناً، فقد كان ينبهنا قبل أن نذهب للسـهر عنـدهم أن لا نتفوه بما يجرح مشاعرهم، أو يمس معتقد اتهم، ولو كان ذلك الكلام عفو الخاطر. وحين ترك ذلك الشريك بستاننا وأرضنا، جـاء أخـوه ليصـبح الشـريك الثـاني بعـد أخيـه، ولتـدوم تلـك الشراكة فترة طويلة جداً، ممزوجة بالحب الصادق والاحترام المتبادل لمشاعر الآخرين.

حشود الأطفال في الألعاب الليلية والنهارية، كانت ضمن مختلف اللغـات، والأديـان والملل والمذاهب. إنها كانت نتاج الحياة البشرية التي كانت تتدفق في عفرين بهـدوء وأمـن، دون أي عائق يعكر صفوها.

الحب في عفرين

لم تكن العادات والتقاليد في عفرين تسمح بانتشار الحب بين الشباب والشابات. فقد حمل عرب عفرين وأكرادهم من عشائرهم أو من قراهم الطبائع والتقاليد الصارمة، البدوية أو الريفية في الحشمة والأدب والأخلاق.

إن سرت قصة حب في عفرين بين اثنين، فنتيجة ذلك – كما في الريف تماماً ـ حرمان الشابين من زواج مليء بالمحبة. وإن وجد الأهل أنه لاطاقة لهم في إيقاف فيض ذلك الحب، فإنهم كانوا يلجؤون إلى تزويج ابنتهم العاشقة من أي زوج. وعلى الأغلب لم يكن مناسباً لتلك الفتاة المسكينة التي لم تعرفه ولم تحبه. معظم أولئك الأزواج المختارين كانوا كباراً في السن أو متزوجين بامرأة أخرى.

كان المحبون يحبون رغم كل شيء، وكانوا يتبادلون عرابين حبهم هدايا بسيطة جميلة، تكون على الأغلب مناديل صغيرة من القماش الأبيض رسمت عليها المُحبّة بالكناويجا حروفاً، أو رموزاً أورسوماً تعبر بشكل خفي عن حبها لشابها. وأحياناً تكون زجاجة العطر هي الهدية الثمينة من الشاب العاشق. ولكني أذكر أن إحداهن أهدت من تحبه خصلة من شعرها. قصّتها خفية، وأرسلتها إلى حبيبها.

وكان عقاب من يخطف من يحبها هو القتل له ولها. كان الخطف يحدث عادة بعد أن يرفض أهل الفتاة مراراً طلب الشاب خطبة ابنتهم، وسبب الرفض انتشار قصة حب الفتى والفتى في الحي وبين الجيران. كم من الفتيات ذهبن ضحية تلك التقاليد المشؤومة.

الحادثة التي هزت عفرين كانت جريمة ذبح فتاة صغيرة، بل قل طفلة صغيرة. ذبحها أخوها، ويقال إنه لم يجرؤ على ذلك، فذبحها صديقه الذي اشترك معه في الجريمة. كانت أمي تروي تلك الفاجعة مراراً مبدية أسفها وحزنها على تلك الفتاة البريئة. وكلما كنت أسمعها منها كان قلبي يمتلئ هلعاً، ويقشعر جسمي من بشاعة تلك الجريمة. كانت أمي تقول إن جريمتها الوحيدة أنها شوهدت مع شاب في سيارته الجيب على طريق

راجو. قرر الأخ رفع العار وذبحها، فأبعد أهله عن البيت لزيارة الأقارب أو غير ذلك، وأبقى عليها وحيدة في البيت ليلة الجريمة. تقول أمي: إن الفتاة حين همّ أخوها بذبحها، توسلت إليه أن لايقتلها، وإنها بريئة. فضعف ولم تطاوعه يداه، فقام الصديق بتلك المهمة. هربت الفتاة باتجاه حائط الجيران وهي تصرخ مستنجدة بهم، ولكن الصديق المخلص لحقها وجعل سكّينه تسبح في الدماء. بعد الجريمة تبين للطبيب الشرعي أنها عذراء. أذكر أني رأيتهما يوم خروجهما من السجن الذي لم يبقيا فيه كثيراً، كان الطبالون والزمارون يتقدمونهما وحولهما عدد لابأس به من المستقبلين.

حين أرى الآن، وأسمع الآباء والأهل في القرى البعيدة في منطقة عفرين، يستشيرون بناتهم فيمن يرغبون الزواج بهن، يمتلئ قلبي فرحاً، وأتذكر تلك السنين الماضية المليئة بالأسى والتخلف فيمتلئ قلبي حزناً على تلك الأرواح البريئة التي أزهقت على مذبح عادات الجهل والتخلف.

ولكن لابد أن أذكر أن الحياة الآجتماعية في عفرين، كانت منفتحة قليلاً، سواء كان ذلك في البيت، أو في الأرض فقد كان الاختلاط سمة السهرات والمناسبات، وكذلك سمة العمل في الحقل، وكان المجال واسعاً ليتعرف الشاب على من يحب، سواء أكان ذلك في البستان أو الأرض أو السهرات أو المناسبات أو في الأعراس التي كانت كما هي اليوم مختلطة، تتشابك فيها أيدي الصبايا بأيدي الشباب.

الطقس والأنواء في عفرين

عفرين مدينة جميلة. وإن المهندس الذي اختار موقعها، لابد أنه كان يمتاز بحس رومانسي مرهف، ونظرة شاعرية، وذوق رفيع. ودون أن أعرف اسمه، فله الشكر مني على اختياره الموفق هذا. هضبة جميلة تسترخي مدينة عفرين عليها، تمتد أرجلها حتى الجسر أسفل الهضبة لتستحم في مياه نهر عفرين. أما رأسها على أعلى الهضبة فمطلّ من الشرق على النهر والجبال والتلال، التي ترتفع عليها عرش (عش) قيبار، و قسطله كيشك وجمكه ونهر

عفرين. ومن الشمال على تلك السهول التي تمتد من تل (تر) طويل شمالاً، وتجتاز (تلي خلله)وقرية (استير)لترتمي عند أقدام قرية (كمروك)، متوسعة غرباً إلى (جويق)، وشرقاً إلى تلال جبل حنّة، وسكة الحديد وقطار الشرق السريع. أما إطلالة عفرين غرباً، فإنها تمتد حتى أعماق لواء إسكندرون، وإن حجبت تلال معراته بعض هذا الامتداد. أما في الجنوب، فسهول سرير نهر عفرين التي تنبسط خضراء، جنة لكل أنواع الحبوب والفاكهة، ممتدة إلى الباسوطة ملتوية إلى برج عبدالو، وغزاوية وشيح الدير وإسكا وجلمه، واصلة إلى سهل العمق.

وقفت مرة وأنا في طريقي إلى بستاننا الذي يقع قرب قرية (استير)، على قمة تل طويل متأملاً ذلك المنظر الساحر. كان الوقت ربيعاً، السهول متلونة باللون الأخضر المتنوع. فللحنطة خضاره وللشعير خضرته، وكذلك خضرة العدس والحمص، ناهيك عن خضرة الأشجار المثمرة. النهر كان يمتد شريطاً أزرق رائعاً عن يميني. على مد النظر في كل الاتجاهات، كانت تمتد سهول وتلال وجبال، تعلو بعضها بعضاً في لوحة رومانسية بديعة، رسمتها أيدي الطبيعة الرائعة. تملّكتني في تلك اللحظة وفي ذلك المنظر المدهش نشوة عارمة، وقلت لنفسي: يكفي الإنسان ليحيا، عينان يرى بهما هذا المنظر، لايهم بعد ذلك إن لم يملك المال أو الثياب أو الطعام أو الشراب.

هذا الموقع الجميل لعفرين، جعلها تستقبل في فصل الصيف الحار النسائم الغربية اللطيفة هابّة على وجوه أهلها الذين كانوا يتربعون الأرض في ساعات الأصيل أمام أبواب دورهم مستقبلين الغروب ممتعين النظر بتلك السهول الغربية المليئة بالنسيم العليل. وإن كانت تلك السهول تصبح فارغة بعد الحصاد، فتجعل نهارات عفرين متربة، فإن ذلك لم يكن يعكر صفو أجواء عفرين الممتعة.

أما النهر فكان مكملاً للوحة عفرين الرومانسية. إذ يأتي من الشمال ليداعب بلطف ونعومة خاصرة عفرين الشرقية، ويستمر في تدفقه نحو الجنوب واهباً سكانها متعة جلسات ماقبل الغروب على ضفافه الرملية، أو على حافة النبع الذي كان يتدفق من باطن رماله

على بعد عشرات الأمتار من الجسر، أو الوقوف فوق الجسر لتأمل النهر، وهو يتلون بألوان متعددة وهو يودع الشمس.

في الشتاء كانت سماء عفرين تمتلئ بالخير، ولاتدع الغيوم حيزاً في السماء دون أن تشغله. كانت الأمطار تملأ المزاريب ، وتملأ تلك الأواني والحلل، فيوفر أصحابها الفرنكات الكثيرة التي كانوا يدفعونها للسقاجي ثمناً للمياه. وكان الرسول المبشر لتلك الأمطار يأتي في كل عام في أواخر الخريف، مؤكداً المثل الأسطوري القديم (أيلول ذنبه مبلول). كانت السماء ترعد وتبرق وتمتلئ بالغيوم في لحظات، لتمتلئ بعد ذلك بحبال لا تنتهي من المياه غامرة الشوارع، مكونة سيولاً صغيرة كأنها أفاع هائجة تسلك كل طريق وتقتحم كل مكان.

في الشتاء، كانت الأيام التي تغمر عفرين فيها بالثلوج، كثيرة جداً. ففي كثير من الصباحا ت الشتوية كنا نستيقظ على صوت رفش أبي وهو يجرف به الثلج عن باب الدار، ليفتح ونطل على العالم الخارجي. وحين نطل كنا نرى منظراًساحراً: كل التلال المحيطة بعفرين من تل طويل إلى زيدية، وخلنير وكفرشيل، ومعراته وترنده، وعرشقيبار، متشحة بثوب أبيض قشيب، يبعث السرور والمر ح والنقاء في نفوسنا نحن الأطفال. أما أرض جعفر ذلك السهل الواسع فقد تحول إلى بساط أبيض ملائكي، مُدّ لضيوف الشتاء من برق ورعد وغيوم ورياح وأمطار. كنا نملأ طاساتنا من الثلج بالمجان، ونصب عليه دبس العنب اللزج لنصنع أطيب بوظة طبيعية، نملأبه معداتنا بملاعق صغيرة فرحين طربين. ثم نخرج إلى الشارع العريض وكل شوارع عفرين عريضة، فهي رقعة شطرنج بشرية. نخرج إلى الشارع لنتقاذف كرات الثلج، أو نصنع أشكالاً من الثلج غير متقنة الصنع.

كانت هذه الثلوج تدوم أحياناً أياماً عدة، لايجرؤ الإنسان فيها على السير ليلاً، أوحتى نهاراً بعيداً عن الأماكن المأهولة . فقد كانت تجول فيها الحيوانات المفترسة كالذئب والضبع، بالإضافة إلى حيوانات أخرى كالثعالب وبنات آوى والأرانب وغيرها.

أذكر مرة أن أخي الكبير غاب أياماً عن البيت وكانت هذه عادته، ولكن هذه المرة،

الغياب حدث في الشتاء، في هذا الفصل المخيف. ألحت أمي على أبي أن يذهب للبحث عنه، وكانت مولعة به فهو ابنها البكر، وليس لها سوى ولدين ـ أنا وهو ـ رضخ والدي لتوسلات أمي، وذهب للبحث عن أخي. كان الثلج يملأ كل مكان. عاد أبي في المساء لينهي بحثه، وليخبرنا أنه رأى الذئاب في وضح النهار تجوب طرق تلك القرى المترامية على التلال.

كل القصص عن الضباع، وعن بطولات الرجال ضدها، كانت تروى في الشتاء، فهو موسمها. قصص مليئة بالخيال: رجل انبطح على الأرض، ليشرب من ماء المطر المتجمع بين الصخور، فجأة يحس بالضبع فوقه ولكن شجاعته وخنجره الحاد كانا كفيلين بالقضاء على ذلك الوحش المفترس. قصص أخرى عن نبش الضباع للقبور، وأكل جثث الأموات الجدد، أو قصص لضباع رشت بولها على رجال فضبعتهم، فتبعوها إلى أوكارها، كما يتبع الكلب صاحبه، ليتحولوا في الأوكار إلى وجبات دسمة. حين كنت أسمع هذه القصص المرعبة، كان يتملكني الفزع، وأنا أتخيل نفسي مضبوعاً، سائراً خلف الضبع إلى وكره ليأكلني.

في أحد فصول الشتاء دعينا ـ نحن الأطفال ـ للفرجة على عائلة للضباع: الأب والأم، وجرويهما الصغيرين، كانت أفواهها مكممة بالحديد. كانت أجرة الفرجة فرنكا واحداً. لم يعجبني منظر تلك الضباع، ومازلت حتى الآن أشمئز من منظرها القبيح. استغربت في ذلك الوقت، ومازلت أستغرب حتى الآن كيف اصطاد أولئك الناس تلك الأسرة الضبعية.

في أيام الربيع كان كل شيء حول عفرين أخضر، وخاصة أرض جعفر، فقد كان بساطه السندسي يمتد من الطرف الغربي من طريق راجو، حتى تخوم معراته، وكفر شيل وخلنير وآخر البيوت العفرينية على طريق جنديرس وشماله. كانت تلك الخضرة بهجة لأنظار أهل عفرين.

أما في الجبال فكانت الزهور البرية، والكر بش (الحرشوف) الذي كان يشبه بشكله

وطعمه الأرضي شوكي. كنا نزيل وبر زهرته فتبدو الثمرة شهية فنأكلها نيئة. أما سوقه فكانت مليئة بالماء والنضارة، تشبه في طعمها حين نقشره ونأكله الخيار البلدي. كنا نخرج من الأرض الربيعية الطرية ال (بيفوك) وهو يشبه الثوم في منظره، وذو طعم رائع. أما من سطح الأرض فكنا نلتقط من بين أشجار الغابة وبين أعشابها الفطر (كفرك). أما على سطح التلال وبين الصخور الناعمة فكنا نلتقط عنب الواوي وهو يشبه عنقود العنب ولكن حباته صغيرة ناعمة سمراء وهو ذو طعم حامض لذيذ.

النسوة كانت متعتهن البحث عن الخبيزة البرية الخضراء التي لايضاهي طعمَها طعم حين الطبخ. من بين النبتات الأخرى التي كانوا يجمعونها الزعتر البري والعكوب أو السلبين (كرنك). ناهيك عن النرجس البري الذي كان يتلألأ في الربيع فيقطفونه من تلك التلال ليكون بشارة الربيع والخير وليملأ البيوت بعطره والقلوب بحبه.

في فصل الشتاء كان النهر الوديع يتحول إلى وحش كاسر، تحمر عيونه غضباً، وتمتلئ مياهه طيناً وقشاً وحطباً. أذكر مرة بعد هطول أمطار غزيرة، ملأت مجرى النهر بالمياه. أننا وقفنا فوق الجسر في تلك الأجواء الممطرة المكفهرة، نراقب تلك المياه المجنونة الحمراء التي ارتفع مستواها حتى كادت أن تغمر الجسر، ناسين أننا بوقوفنا الخطر فوق الجسر في تلك الأجواء الشتوية والسيول الجارفة والنهر الغاضب مجانين أكثر من النهر والسيول. أعتقد أن ما كان يدفعنا إلى ذلك هو رؤية نهرنا الحبيب في حالتي الوداعة والجنون.

كان بعض الناس يستغلون هذا الفيضان في صيد السمك. كان السمك المسكين يتلوى مختنقاً في تلك المياه الموحلة للنهر، ويكاد يطفو على سطح مياهه. كانوا يأتون بأكياس الخيش (المهيأة للقمح أو غيره من الحبوب)، ويفتحونها في مواجهة تيار النهر في الأماكن الضحلة، ولايلبثون إلا قليلاً حتى تمتلئ أكياسهم بما لذ وطاب من أصناف السمك.

في تلك الفترة من الخمسينيات من القرن العشرين، انتشرت أغنية شعبية تصف النهر في أوج قوته وعنفوانه (عفرين هاتي خمّو خشّا... بسَر كاتي قُرمو قرشا). جاء عفرين

مصطخباً هادراً، يطفو فوق مياهه الخشب والقش.

أما القصص المأساوية التي كانت تروى عن تلك الشتاءات، فكانت تملأ القلب حزناً: النهر الذي يفيض فيجرف الأخضر واليابس، السيول المفاجئة التي تغرق بمياهها البشر والحيوان والشجر، البرق الذي كان يصيب أي مكان، جبلاً كان أو بستاناً. ولكن المأساة تكون حين تنزل الصاعقة على رأس راع مبلول أو امرأة أو رجل فيحيلهم إلى فحم أسود.

عفرين وحرب فلسطين

١٩٤٨ كانت سنة حرب فلسطين. كل الدول العربية ادعت في ذلك الوقت، أنها ستطرد الغزاة الصهاينة. وكانت القصص التي تنتشر بيننا ـ نحن الأطفال ـ ومن المؤكد أننا سمعناها من الكبار، هذه القصص كانت توحي بأن أصدق الدول االعربية المواجهة هي سورية.

أتذكر صورة في عفرين من تداعيات حرب فلسطين. هذه الصورة هي مركز التطوع في عفرين. كان ذلك المركز دكاناً لاأذكر مكانه بالضبط، ولكن كان في صف الدكاكين الواقعة غرب السراي على طريق راجو. كان الشيف جما ل والذي أصبح بعد ذلك الملازم جمال، هو مدير المركز وهو ابن قريتنا جويق. كان الملازم جمال قد كلّف بتطويع الشباب في الجيش للاشتراك في حرب فلسطين.

اليوم الذي أذكره كان يوماً حزيناًجدأعلى الأسرة، حتى عليّ وأنا الصغير الذي لم أكن أفهم الحزن بعد. بل أقول إنه كان يوم حزن لأسر كثيرة من عفرين وخا صة الأمهات منها. فقد تقدم كثير من شباب عفرين إلى الشيف جمال للتطوع ومنهم أخي. كانت المناسبة بالنسبة للشباب عرساً وفرحاً وحماساً على عكس الأمهات اللواتي كنّ يظنّن أن من يذهب من أولادهن لن يرجع قط.

الأسرة كلها ذهبت مع أخي إلى مركز التطوع. تحدانا أخي جميعاً رافضاً توسلاتنا إليه بالعدول عن قراره. أبي ذهب إلى البستان لكي لاينفجر غضبه وحزنه اللذان إذا حدثا فلن يقف أمامهما شيء. أمام مركز التطوع كانت أسر الشباب تكوّن مظاهرة حقيقية،

الأمهات فيها يشكلن أكثرها وعمادها.

فحص أخي فحصاً طبياً، كان طويلاً نحيلاً، وقدحدّثنا فيما بعد، أن وزنه نقص عن المطلوب وهو خمسين كغ بكغ واحد ولكن الشيف جمال الذي قرأ في عيني أ خي التوسلات بالقبول، أومأ للفاحص الطبي أن يمشّيها وكأن لسان حاله يقول: هل سيعود هذا الذي سيذهب إلى حرب فلسطين. وهكذ ا قبل أخي.

عندما بدأ المتطوعون يغادرون عفرين اشتد البكاء والصياح والعويل من الأمهات الحزينات . في طريق العودة إلى البيت رأينا منظراً مأساوياً. عدد كبير من الناس تجمعوا حول امرأة نعرفها اسمها أم محمد. كان ابنها محمد من بين الذين تطوعوا وغادروا عفرين. كانت تسير بضع خطوات وهي تولول ثم تتقلب على الأرض متمرغة بالتراب ثم تجلس فتحثو التراب على رأسها. تلطم خديها، وتشد شعرها مرددة: ابني... وحيدي... فلذة كبدي. كانت ذكريات السفربولوك وحكم العثمانيين وحرب شناق قلعة ما تزال ماثلة في مخيلة الناس. دعت أم محمد أن يكون موتها يوم عودة ابنها سالماً لتكتحل عيناها برؤيته قبل موتها. تشاء الصدف أن لايستطيع محمد الحضور في إجازة إلاحين دعي لوداعها وهي تحتضر. فتفارق المسكينة الحياة وهي تحتضن ابنها وتقبله.

عدنا من مركز التطوع حزينين، بكيت يومها كثيراً حين رأيت الكل يبكي، ثم غبت في نوم عميق، وأنا الذي لايعرف النوم نهاراً.

العرس في عفرين

عندما أقارن أعراس اليوم بأعراس الخمسينيات، تمتلئ نفسي بالأسى والحزن، فأين الثرى من الثريا، اليوم العرس كله ساعتان أو ثلاث ساعات من الليل، تمتلئ الأذن فيها بالأصوات الصاخبة، حتى إذا خرجت من صالة العرس لاتستطيع أن تسمع الأصوات المنخفضة فغشاء الطبل في الأذنين يكون قد تمدد على مقياس الأصوات العالية. صوت المطرب تتغلب عليه أصوات مكبرات الصوت، فلا تفهم كلمات أغنيته، ولاتسمع صوته الحقيقي.

الأطفال يملؤون الصالات وفي الاستراحات تتحول ساحة الصالة إلى ملعب لكرة القدم. كرة القدم هي علبة الكازوز المعدنية، ويمكن أن يطيح بها لاعب فتطير فوق رؤوس المحتفلين. بعد مرور ساعتين أو أكثر يدعى المدعوون لدفع مبلغ من المال، وينتهي كل شيء.

العرس القديم كان احتفالاً حقيقياً، يشعر فيه الجميع بأن هناك فرحاً وعرساً، وأن السعادة يجب أن تدخل قلوب الجميع. يستمر العرس أياماً بلياليها، وصاحب العرس يحتار كيف يخدم الجميع بدون استثناء. المدعوون (الخونده) يحضرون من القرى ومن الأحياء، فيستقبلون بالطبل والزرناية وعلى رأس المستقبلين والد العريس، يوزع المدعوون على الأقارب والأصدقاء في بيوتهم يأكلون ويشربون حسب إمكانية كل مضيف ومستقبل. تخيم على الجميع روح التآلف والمحبة والتعاون. طوال أيام العرس كل واحد يؤدي واجبه على ما يرام. في الصباح يتجول الطبالون والزمارون (الكريف) على المدعوين ليوقظوهم ويدعوهم إلى ساحة العرس، وفي المساء يجتمع أولئك الفنانون في بيت أحد المضيفين لتسلية الضيوف، فتغنى الأغاني وتقام الرقصات ويطلق الرصاص. في ساحة العرس حين ينبري أحدهم للغناء، يقف الزمار عن النفخ بمزماره وعصا الطبال الكبيرة تقف، ليسمع الجميع صوت المطرب، إنها ساعة امتحان وتسابق وشهرة، فمن تلك الساحة كان يتخرج المطربون. أما الأغاني فكانت متنوعة بين الخفيف والثقيل، أذكر عناوين بعضها: زَرْيه... توسونو... حمو... برده دستي مِن. حول ساحة العرس كانت تمد الفرش والبسط والوسائد ليستريح عليها المدعوون بعد رقصهم وتعبهم، وكثيراً ما كان يتخلل العرس حركات الكريف الدالة على الطاعة والاحترام وهم يشوبشون للمدعوين المتكرمين الذين لايبخلون عليهم بالشوباش، فترتفع أيدي الكريف بالمال المدفوع، وترتفع أصواتهم معلنة عن اسم الدافع وعن المبلغ المدفوعِ.

قبل العرس بيوم أو أكثر كانت توزع الخلع والهدايا، فإن كانت خلعاً خفيفة (رخيصة الثمن) فإنها إما أن تكون كؤوس بللورية أو مناديل (مناشف). كانت تلك الهدايا توزع بمرافقة الطبل والزمر. أما الهدايا الثقيلة فكانت توزع على المقربين جداً بدون طبل أوزمر.

أما العروس فلابد لها من حفلة الحنـة في الليلـة السـابقة علـى الزفـة، وكانـت ترافـق الحفلة أغان خاصة بها. أما قبل خروج العروس من بيت أهلها، فكان لابد من أغـاني الـوداع ولابد أن تدمع عينا العروس فهي ستترك الدار التي ترعرعت فيها في كنف الأهل. عند خروج العروس، يقف واحد من أهلـها، وعلـى الأغلـب يكـون الأخ، فيمنـع خروجهـا جالسـاً علـى صندوق جهازها أو واقفاً ليسد الباب. عند ذاك يرضيه والد العريس ببعض المال فيفتح الطريـق للعروس حيث تخرج ترافقها زغاريد رفيقاتها، أما الكريف فيعزفون معزوفة الاستقبال والوداع وهي ذات نغمات قوية وإيقاعات صاخبة، تشبه المَرشات (المعزوفات العسكرية).

في الزمن الذي أتحدث كانت السيارات قليلة جداً. ولذلك كـان مـن النـادر أن تـزف العروس إلى عريسها في سيارة تتجول بها في أرجاء عفرين، بـل كانـت تـزف علـى الأغلـب على ظهر حصان، وقد شهدت زفة عروس على الحصان. كانت العروس على ظهـر حصـان أبيض في ثوبها الأبيض، خلفها كان طفل صغير. دَخَلـت بالحصـان إلى باحـة الـدار حيـث لاأبواب، ثُم أنزلت من الحصان وقبل أن تدلف إلى دار العريس ألصـقت قطعـة عجـين عـل حجر الباب. من على السطوح رُشت على من في باحة الـدار القضـامة بسـكر ومعهـا بعـض الفرنكا ت، فتراكض الأطفال ـ ومن بينهم أنا ـ إليها يلتقطونها بفرح وصخب.

أجمل ليالي العرس كانت تلك التي يقطع موسيقاها ورقصـها (القشـمر). وهـو شـاب دهن وجهه بالشحار (هباب الفحم)، ولـبس فـروة خـروف أو ماشـابه ذلـك، يـأتي راكضـاً ليخترق صفوف الراقصين صائحاً هائجاً، فيثير المرح والضحك، ثم يختفي كما ظهر بسرعة

ولكن القاسي من تلك العادات، كانت حين يخرج العريس إلى الناس الذين ينتظرون خروجه ـ بعد اختلائه بعروسه ـ بمنديل مخضب بالدم، فتزغرد أم العروس فرحـة بطهـارة ابنتها، ثم تغادر عائـدة إلى دارهـا مطمئنـة. وكـثيراً ماكانـت تلـك اللحظـة تترافـق بـإطلاق الرصاص من قبل أهل العريس فرحاً وابتهاجاً برجولة ابنهم.

العـرس كـان مهرجانـاً بكـل معنـى الكلمـة، لم يكـن اجتماعـاً لجمـع المـال أو للـم التبرعات، أو سما ع الأصوات العالية المزعجة.

الختان (الطهور)

لم يكن طقس الطهور يقل عن طقوس العرس، في كثير من الأحيان. فكثيراًماكان الطبل والزمر يصدحان في تلك المناسبات، وتذبح الذبائح. كان الطفل الصغير يوضع في حضن كريفه (إشبينه). وهورجل من الأقارب، أو من الأصحاب. وإن لم يكن من الأقارب، يصبح قريباً منذ تلك اللحظة. ثم يأتي المطهر، ويقوم بختان الطفل، وتبدأ بعدها الاحتفالات، فيرقص الناس ويغنون كما في العرس تماماً، حيث يكون هناك مدعوون، وهدايا وخلع ودبكات، تقام على شرف والد الطفل وأهله، ولكنه لايستمر أياماً كما العرس بل على الأغلب يكون ليوم واحد، ينصرف بعدها المدعوون بعد الغداء إلى بيوتهم وقراهم. الهدايا تكون كلها للمختون. وإن كان صغيراً فإنها تعلق بثيابه وشعره وهي في معظمها قطع ذهبية صغيرة، على شكل كف وذلك لكي تحمي ذلك الصغير من عيون الحساد والأشرار.

دخول اليزيدية في الإسلام

يختلف المؤرخون على نشأة اليزيدية. قلة منهم ينسبونهم إلى يزيد بن معاوية، أما الأكثرية منهم فإنهم يعيدون نشأة ديانتهم إلى أزمنة موغلة في القدم، ويذهب بعضهم إلى أن هذه الديانة هي أقدم من ديانة زرادشت. ولكن الجميع يتفقون على أن هذه الديانة كانت منتشرة بين الأكراد دون سواهم. لست الآن بمعرض تاريخ نشأة هذه الديانة ولكني أود أن أتحدث عن دخول القسم الأكبر منهم في الإسلام. إن جميع الدلائل التاريخية لمنطقة عفرين تدل على أن اليزيدية كانت منتشرة بنسبة كبيرة في كل القرى والأرياف. إن الحكام الأوائل لمنطقة جبل الأكراد كانوا من اليزيديين. فالمنديون كانوايحكمون تلك المناطق في القرن الثاني عشر. وتدل مقالات كثيرة على أن شيوخهم ورؤساءهم الذين كانوا يتمركزون في القرن التاسع عشر في قريتي بافلون وبرج عبدالو، كانوا يسيطرون على منطقة عفرين برمتها. إن آثارهم السكانية على امتداد خط عفرين ـ الباسوطة ـ برج عبدالو ـ الغزاوية ـ إسكان – جلمه، تدل على أن تلك القرى كانت تدين بمعظم سكانها باليزيدية. إن عوامل عديدة

تضافرت لتركهم لديانتهم ودخولهم في الإسلام، فالدولة العثمانية بمذهبها السني كانت تشن عليهم الحملة تلو الحملة، والأكراد أنفسهم الذين يتبعون بغالبتهم للمذهب السني كانوا لايقصرون في محاربتهم للقضاء عليهم أو حرفهم عن مذهبهم. هذا بالإضافة إلى ما كان في الماضي من سرية مذهبهم وعدم البوح به، والخوف من إظهاره، كل ذلك أدى إلى دخول القسم الأعظم منهم في المذهب السني، ولم تبق إلا قرى قليلة في منطقة عفرين كلها تدين بالمذهب اليزيدي.

وقد شهدت في طفولتي ترك أحد اليزيديين لمذهبه واعتناق المذهب السني كان ذلك الشخص يدعى إيبو ويعمل سماناً (صاحب بقالية)، محله تحت الجامع القديم قرب المدرسة القديمة في عفرين. حضر هو وشخص آخر ورجل دين ملتح إلى بيت الشيف حميد في عفرين أيضاً. بقوا في غرفة الاستقبال أكثر من ساعة، الواضح أنها كانت للإقناع والهداية، ثم خرج المدعو إيبو وحمل إبريق الماء ودخل دورة المياه، ثم خرج وتوضأ، ثم وقف مع الثلاثة الآخرين لصلاة الجماعة، بعد أن علموه كيف يصلي. إن مثل هذه الحالات كانت تجري بشكل كبير في الخمسينيات. والدليل على ذلك التحول، أننا نجد الآن أبناء عمومة، منهم يزيديون، ومنهم مسلمون سنيون، فأحد الأجداد تحول إلى المذهب السني، والآخر بقي على مذهبه.

المدرسة الأولى ـ التعليم

ترتفع المدرسة الابتدائية القديمة الأولى حتى الآن شامخة، ببنائها الحجري الصوري، وشكلها المربع. في ذلك البناء تلقى أبناء عفرين الأوائل الشعاعات الأولى من النور الذي محا ظلمات العصور المتخلفة. قبل المدرسة كان البحث يجري في عفرين كلها، عن متعلم ليستطيع أن يفك حروف رسالة واردة من ابن حبيب، أو يقرأ وثيقة ما. المدرسة مازالت كما هي في الخمسينيات، لم يصب شكلها الخارجي أي تغيير، أوتشويه. بنيت المدرسة عندما ظهرت عفرين إلى الوجود. كانت من البنى التحتية التي بنيت هي ودار

الحكومة، والسجن والبازار والجامع، بنيت كلها قبل أن تبنى المدينة وتكبر.

يحد المدرسة من الغرب دار مدير المنطقة (القائم مقام سابقاً). من الجنوب الحديقة العامة التي كانت عامرة في زمن طفولتنا، ثم البازار ـ المهرجان الشعبي – الذي كان يقام ـ ومايزال ـ في كل يوم أربعاء. وعلى زاوية الحديقة والبازار في جنوب المدرسة، كان المنهل الوحيد لسكان عفرين (صنبور الماء ـ الحنفية).

المدرسة الابتدائية الأولى للذكور

بناء المدرسة يتألف من طابقين في كل طابق ردهة واسعة تتوسط ثلاث غرف على اليمين، وثلاث غرف على اليسار. يرتفع درج جميل من الطابق الأول إلى الثاني، كان يصعد عليه طلاب الصفين الرابع والخامس، أما الإدارة فكانت في الأسفل، في الأعلى كان كل ماتحتاجه المدرسة من مكتبة أو مخبر أو غير ذلك. كان للمدرسة سور يحيط بها من جوانبها الأربعة، وللسور باب كبير معدني من الجهة الشمالية، له ردفتان. من باب السور حتى باب المدرسة الداخلي الخشبي، كان يمتد ممر واسع جميل، يرتفع عن مستوى الباحة بنصف متر تقريباً. على هذا الممر كان المدير والمعلمون يستعرضون التلاميذ،

وينظمونهم قبل إدخالهم إلى الصفوف. في أعلى المدرسة كانت ترتفع سارية يرفرف عليها العلم السوري ذو الألوان الثلاثة: الأخضر والأبيض والأسود مشيرة إلى العهود الثلاثة: الراشدي فالأموي فالعباسي، ثم النجوم الثلاثة في الوسط رمز للثورات السورية الثلاث.

في تلك الباحة كنا نحيي علم سورية كل صباح، وننشد له الأناشيد الوطنية: من حماة الديار... إلى موطني... إلى في سبيل المجد والأوطان... إلى نحن الشباب. كانت الباحة مربعة واسعة تحيط بالمدرسة من جهاتها الأربعة، وكان فيها أشجار عالية من السرو السامق الشاهق، وأتذكر أن بعض التمرينات بكرة القدم كانت تجري في تلك الباحة، ولا تزال عالقة بذاكرتي صورة كرة القدم ـ وقد ركلها الأستاذ المرحوم فتحي بدري ـ ترتفع عالية جداً مثيرة دهشتنا نحن الصغار.

كان عالم المدرسة بالنسبة لنا نحن الأطفال عالماً سحرياً مقدساً، ننظر إليه بكل هيبة واحترام، ونتمنى أن نكون مثل الذين يتعلمون فيها. سأحدثكم عن شعوري في اليوم الأول لدخولي المدرسة، وتحولي من طفل شريد إلى تلميذ منضبط: كنت في طريقي إلى المدرسة أخيراً ممسكاً بيد والدي، أكاد أجري لألحقه في خطواته المديدة. الفرح الذي كان يغمرني كان عارماً، كنت لاأحس بوقع أقدامي على الأرض، كنت أطير. شعري كان ممشطاً نظيفاً على غير عادته، وثوبي الذي كنت ألبسه وحيداً دون أي ثياب، حشر يومها داخل بنطال قصير، خاطته أمي ـ ليس بماكينة خياطة ولكن باليد ـ بخيوط ثخينة، ظهرت واضحة على ذلك البنطال السميك ذي اللون الخاكي، الذي كان أصلاً بنطال أبي. تدلت بعض أطراف الثوب من فتحتي البنطال، وتجمع الباقي تحت البنطال سميكاً منفوخاً. كنت أبدو كمن يحيط خصره بطوق للنجاة، أما قدماي الحافيتان على الدوام، فقد حشرتا اليوم داخل تاسومتين حمراوين جديدتين. كنت في شغل عن شكلي الجديد، بفرحي العظيم لذهابي إلى ذلك العالم الخيالي المليء بالأحلام.

كانت صور الماضي القريب تمر بخاطري شريطاً ملوناً زاهياً، وتتدفق نبعاً عذباً على

ذاكرتي: هاهي عصابتنا الصغيرة تعود من ضفة النهر، بعد ساعات من اللهو واللعب والسباحة، ونمر من أمام المدرسة، فنتجمع على الباب كتلة متراصة من أجساد صغيرة ـ مستغلين غياب الآذن عبد القادر ـ وننظر إلى الداخل نظرات مستطلعة، سائلة عن خفايا ذلك العالم البعيد عن عالمنا. كنا نتخيل التلميذ في مدرسته إنساناً آخر يعيش حياة نجهلها نحن أطفال الشارع، فقد كانت صفوفهم المرتبة، وثيابهم الموحدة، ورؤوسهم الحليقة المدورة، وصيحاتهم المنظمة تضفي على ذلك العالم السحري جواً أخاذاً، ونكهة لذيذة. في أيام أخرى ـ حين مرورنا من أمام المدرسة ـ كانت تتناهى إلى أسماعنا أصوات عذبة تشق السكون المخيم على المدرسة، فنحس لها وقعاً خاصاً، ونتوقف جميعاً عن كل حركة، وننصت لنشنف آذاننا بتلك الأصوات النابعة من حناجر تلك العصافير (التلاميذ)، ويهمس أحدنا همس العارف: إنهم في درس نشيد.

تذكرت نفسي حين كنت أجمع بعض الأوراق البيضاء من هنا وهناك، أحملها إلى البيت لأسطر عليها مايجود به خيالي من خطوط وخربشات، بقلم رصاص مهترئ لاتكاد فحمته ترى، ضاغطا عليه بكل قوتي، رافعاً إياه بين الحين والآخر إلى فمي لأبله، كما يفعل ابن جارنا أحمد (التلميذ). وحين أيئس من إنتاج شيء ما، أرمي بكل شيء.

أفقت من أحلامي الصغيرة على واجهة المدرسة المهيبة، وسورها الجميل الذي تمتد داخله قامات أشجار السرو بهاماتها العالية. دخلنا الباحة، واجتزنا الممر الخارجي، وأنا لاأكاد أضبط خطواتي خجلاً من العيون المستطلعة الباحثة عن كل شيء فيّ. كانت عيناي تمران سريعتين على كل شيء: الردهة الجدران، السقف الأرض. ولو تجرأت للمست بعض الأشياء بأصابعي.

انتهى الأمر أمام مدير المدرسة، فقد أعطاه والدي الأوراق الضرورية، وأصبحت فرداً في هذا المجتمع الساحر. وحين قرع الجرس، ووقفت في الصف مع الجميع، كان الفرح قد امتلك كل حواسي، وكنت أشعر في نفسي كأن الأصوات المهموسة تقول: انظروا إلى هذا التلميذ الجديد الرائع.

في فرصة الظهيرة، عدت إلى البيت كمن يعود من معركة مظفّرة، كانت محفظتي القماشية معلقة بعنقي، أحاول لفت نظر الجيران إليّ وإليها. استقبلتني أمي بفرح لايوصف، ولكني صحت متدللاً متباهياً: أمي... أنا لاأستطيع التأخر، سيغضب المعلم... أرجوك أريد أن آكل، لايجوز أن أتأخر، سيؤنبني المعلم، إننا أخذنا درس نشيد وقراءة. لم تكن أمي تعرف مامعنى النشيد والقراءة والحساب، ولكنها كانت تعلم أنني سأصبح إنساناً آخر في المدرسة. بدأت تهيء لي الطعام وهي تغمرني بنظرات الفخر والعطف. كنت مشغولاً عن كل ذلك بدفتري أسطر عليه بعض الخطوط المبهمة، التي كانت أول وظيفة في أول يوم في المدرسة. صورة اليوم الأول هذا في المدرسة، مازالت ــ بعد مرور ستين سنة عليها ــ مرتسمة بكل دقائقها في ذاكرتي.

لنعد إلى التعليم والمدرسة في أواخر الأربعينيات. بالإضافة إلى الدفتر والكتاب وقلم الرصاص، كان الأهل يشترون لنا لوحاً أسود، له إطار خشبي كنا نسميه اللوح الحجري، وكان له قلم خاص وإسفنجة للمسح. كنا نسطر على اللوح في المدرسة أو البيت كل مانشاء، ثم نمحوه بعد ذلك. لم نكن نستعمل إلا قلم الرصاص، فلم تكن أقلام الحبر معروفة بعد. حتى لو كانت معروفة، لايمكن لنا نحن تلاميذ الصف الأول استعمالها.

أما في المدرسة، فقد كان لكل ثلاثة تلاميذ، محبرة معدنية مثبتة على وجه مقعدنا الخشبي. كان لتلك المحبرة فجوة في الخشب تستقر فيها، وكانت تلك الفجوة محفورة في منتصف الإفريز الخشبي الذي نضع فيه أقلامنا. كانت محبرة جميلة، لها غطاء معدني متمفصل معها، أعتقد أنها كانت تملأ بالحبر من قبل المدرسة، وكنا لانستعمل حبر تلك المحبرة إلا في درس الخط، فقد كنا نشتري دفاتر لتعلم الخط، وكان عند كل واحد منا ريشة تثبّت على مسكة خشبية، وفي درس الخط، كنا نغمس الريشة في المحبرة، ونتفنن في رسم خطوطنا.

الانتساب إلى المدرسة، كان ميسراً وسهلاً. كانت جميع الأعمار مقبولة، للدخول إلى الصف الأول، بالنسبة لمن تأخروا عن تسجيل أنفسهم، وذلك تشجيعاً لهم على الدراسة،

فـالمهم أن يـدخل التلميـذ إلى المدرسـة، ويـتعلم. إن تـدقيقاً في تـاريخ نيـل أخـي الشـهادة الابتدائية (السرتفيكا)، تدل على أنه دخل الصف الأول وهو في سن الثالثة عشرة، فقد كان من مواليد عام ١٩٢٨، وقد نال شهادته في عـام ١٩٤٦. أمـا في الـزمن الـذي انتسـبت فيـه فأعتقد أن السن النظامي لدخول الصف الأول، كان السابعة من العمر.

في الصف الأول كان صفنا في الطـابق الأرضـي، في الزاويـة الشـمالية الغربيـة، وكـان أستاذنا أقدم أستاذ في المدرسة (عبد الله أفندي). كان وسـيماً أنيقـاً في ملبسـه، وحـين كـان يعلمنا في الصف الأول، كان قد بلغ من العمر عتياً، فقد كان الشيب قد غزا شعره، وكانـت مشيته بطيئة، وكان يقال لنا إنه كان سابقاً مدير المدرسة. أما مدير المدرسة في ذلـك العـام، فلا أتذكر اسمه، ولكني أتذكر صفاته . فقد كان قاسياً، شديد البطش، وكـان يلـبس بذلـة وربطة عنق، وطربوشاً أحمر، وكم عاقب من التلاميذ على الممر أمام كل الصفوف.

في الصف الأول كان عندنا كتاب للقراءة، وكتـاب للحسـاب ودفـتر للكتابـة، ودفـتر خاص للإملاء، ودفتر للأشغال والتلوين، وممحاة ومبراة. أستاذنا عبد الله أفندي، كانت له طقوسه في التعليم. ففي درس الحساب ـ أذكر ذلك ـ كان له نشيد خاص عن الجمـع، فقـد كنا نصيح كلنا بصوت واحد: حصالة النقود... كل قرش زائد، وكان يرافق ذلك خبط اليـد على المقعد، أي أن كل قرش يدخل حصالة النقود هو زائد. أما عنـدما كـان يقـرع الجـرس معلناً انتهاء الدرس، فقد كنا آخر من يخرج إلى الباحة، كان لانتهـاء الـدرس أيضـاً طقسـه الخاص، ونشيده الخاص، فقد كنا نقف جميعاً، ونصيح بصوت واحد: واأسفاه لقد انتهـى درسنا المقدس. كانت الإشاعات حـول أسـتاذنا كـثيرة جـداً، وخاصـة مـن الطـلاب الـذين درّسهم، ومن تلك الإشاعات أنه مدمن على شرب العرق، وأعتقـد أن ذلـك كـان صـحيحاً، فقد كانت ملامح وجهه تدل على أنه كان صاحب كاس وكانوا يقولون: إنه كـان مـن شـدة إدمانه يشرب أحياناً أثناء الدرس إذا حن لها، إذ يقول للتلاميذ: ناموا، فيطبون بوجوههم على المقاعد، فيخرج البطحة (الزجاجة) ويأخذ منها بعض الجرعات. ولكـن لم يحـدث في

صفنا مثل تلك الحالات أبداً، وأعتقد الآن أنها كانت محض دعايات مغرضة. كان عبد الله أفندي هادئاً لطيفاً مع الجميع ولكنه كان شديداً على المشاغبين والكسالى والمقصرين. أذكر أنه رفع مرة أحد أترابنا رفيقنا في الصف (فلقة) لأنه تأخر عن الدوام بعض الظهر. المضحك أن المعاقب لم يكن يلبس إلا ثوباً، فحين رفعت رجلاه لم يبق له ستر مخبأ. كا ن اسم ذلك التلميذ (كمال بلقوجة).

دخلت مرة إلى بيت أستاذنا عبد الله أفندي، ليس إلى البيت بل إلى باحة البيت، وليس بقصد الزيارة بل بقصد اللعب، فقد حول الأستاذ باحة داره إلى ملعب للصغار حيث وضع فيها أرجوحة، وكراسي دوارة، وكرسيان متقابلان بشكل قبان، وغير ذلك. وكان الأطفال يقضون فيها أوقاتهم في اللعب مقابل قروش قليلة.

دوام مدرستنا الابتدائية كان على الشكل التالي:

السبت والأحد والثلاثاء والأربعاء، ستة دروس على مرحلتين: المرحلة الصباحية، وهي أربعة دروس، تبدأ في الثامنة صباحاً، وتنتهي في الساعة الثانية عشرة إلا ربعاً. والمرحلة المسائية، وهي درسان يبدأان في الساعة الثانية وينتهيان في الساعة الرابعة إلاربعاً. أما في يومي الاثنين والخميس، فقد كانت الدروس تقتصر على أربع حصص في كل يوم، وفي الصباح فقط.

كما ذكرت سابقاً أن الانتساب للمدرسة، والدخول إلى الصف الأول كان مسموحاً لمن تجاوز السابعة من العمر. وحين يصل هؤلاء إلى الصفين الرابع أو الخامس، يكونون قد أصبحوا فتياناً في السادسة عشرة، أو السابعة عشرة من العمر. ولذلك فإن من كان يصل منهم إلى هذين الصفين يمكن أن يعين معلماً وكيلاً، فيعلّم الصف الأول أو الصف الثاني. وهكذا في المدرسة تتعلم وتعلّم.

كان للمدرسة فرقة من الكشافة، وأنا متأكد من ذلك لأن أخي حين كان في الصف الخامس كان في فرقة الكشافة. وكانت لهم ثياب خاصة مثل ثياب الكشافة في عصرنا الآن:

البنطال القصير والقميص، والسيدارة على الرأس، والفولار والعقدة الجلدية على العنق، وكان لفرقة الكشافة تلك فرقة موسيقية، فإنني أتذكر استعراضاً لها مع الفرقة الموسيقية على طريق راجو.

كان لهؤلاء الشباب الكبار رأي في السياسة أيضاً، فقد أحضر أخي مرة إلى البيت صورتين، أحدهما لعسكري فرنسي ـ أعرف الآن أنها كانت لديغول ـ وقد شطبت بإشارة ضرب عليها. أما الصورة الأخرى فكانت لمدني يلبس الطربوش الأحمر ـ أعرف الآن أنها كانت لشكري القوتلي ـ كان أخي يصيح: يسقط للعسكري، ويعيش للمدني.

في الصف الثاني غبت عن عفرين كلها سنة دراسية كاملة، ولكني عدت إليها في الصف الثالث. كنت قد كبرت وازداد وعيي. كان صفنا أيضاً في الطابق الأرضي، ولكن في الزاوية الجنوبية الشرقية هذه المرة، وكان من حسن حظنا تعيين أستاذ رائع لصفنا، كان اسمه رشيد زيتوني. كان شاباً عازباً لطيفاً مهذباً، حضارياً أسلوبه يعتمد على اللين والمسايرة، ومحبة التلميذ لأستاذه، ولذلك كنا مبدعين في الدرس، وكنت أنا خاصة أبذل قصارى جهدي لأكون الأول دائماً في الصف لأحظى بمحبة أستاذي وتقديره. كثيراً ما كان الأستاذ رشيد يدعونا مساء لبيته. كان مغرماً بأكل الضفادع والسرطانات النهرية، لذلك كثيراً ما كنا نصطاد له الضفادع والسرطانات من النهر ونحضرها له حية، فيجهزها ليقليها ويأكلها. كم من الرحلات شاركَنا فيها، وخاصة إلى (جبل حنة) مقابل جسر القطار الحديدي قرب محطة قورط قلاق للقطار. كم اصطدنا هناك في رحلاتنا ضفادع وسرطانات إرضاء لرغبة أستاذنا.

عندما كنت في الصف الأول، كان في المدرسة كلها آذن واحد اسمه (عبد القادر) وكان صغير الحجم، يلبس بدلة سفارية، أما على رأسه فكان يضع (بيريه) قبعة سوداء، ولاأتذكره إلا عجوزاً بلغ من العمر عتياً. في الصف الثالث أضيف إلى كادر المدرسة آذن جديد اسمه (شيخو)، كان في الثلاثينيات من عمره، كان يلبس السروال والقميص، ولا

يضع شيئاً على رأسه. كان للمدرسة جرس نحاسي كبير، يقرع باليد حيث لم تكن الكهرباء بعد منتشرة في عفرين، وكان رنينه المفرح يعلو عند انتهاء الدروس مالئاً آذاننا، مبشرا بفرصة مريحة من عناء الدرس.

في الصف الرابع انتقل صفنا إلى الأعلى، فكما ذكرت كان الطابق الأعلى للصفوف المتقدمة: الرابع والخامس. ازداد وعينا أكثر، ورغم أن أستاذنا (سعد الدين لبا بيدي) كان من أقسى الأساتذة على التلاميذ، فقد كان ودوداً جداً معي و لطيفاً، كان يقدر جدي واجتهادي. أي مهمة خارج المدرسة كان يكلفني بها: إحضار طعام له من السوق، إحضار شيءنسيه، من بيته . مرة أرسلني لاستقبال زوجه وحماته القادمتين من حلب في الكراج، وإيصالهما إلى البيت. في الصف كثيراً ماكنت شفيعاً لمن أحبهم من الطلاب لدى أستاذي، ليعفيهم من العقوبة إذا قصروا في أحد الدروس. كان يقول لي: أشر إلى أي واحد منهم لأعفيه. كنت العريف الدائم للصف، وقد كبرت في عينه كثيراً وازدادت محبته لي أكثر، حين احتججت مرة على غيابي عن الدروس بسبب قضاء حاجاته، فكيف لصغير مثلي إبداء هذا الحرص الشديد على الدروس؟

من المفارقات الطريفة التي حدثت لي معه، أنه أراد مرة أن يعاقب بعض الكسالى، فأشارلي بيده رافعاً إياها من الأسفل إلى الأعلى. لاأدري كيف التبس الأمر علي، خرجت من الصف وبدلاً من أن أحضر له عصا ليضرب بها الكسالى، ركضت إلى شيخو طالباً منه قرع الجرس. نفذ الآذن الأمر وكان ذلك قبل انتهاء الدرس وقبل الوقت المحدد. خرج المعلمون من الصفوف مستغربين تلك الفرصة المفاجئة، وحدث ارتباك كبير في المدرسة. حين عدت إلى الصف كنت قد عرفت خطئي. نظر إلي معلمي وضحك، ولم يعاقبني رغم خطئي الكبير.

في منتصف السنة الدرسية، حين وددت الانتقال من صفي ومدرستي ومدينتي عفرين إلى مدينة أخرى، كان معلمي سعد الين يدعو ربه أن لايجد أبي أوراقي اللازمة، لكي لاأنتقل.

مدرسة البنات الابتدائية كانت على بعد عشرات الأمتار من مدرستنا، كانت تقع

مقابل الجامع في بيت عادي، بيت (الأنابلي)، وأعتقد أنها كانت ذات طابقين. من تلك المدرسة تخرّجت الأجيال الأولى من الفتيات المتعلمات في عفرين التي كان يعمها وقراها الجهل والأمية والتخلف. كان في ذلك الزمان تكريم للعلم وخاصة في تعليم الفتيات، فمن تحصَلْ من الفتيات على علامة جيدة تكافأ، أذكر أن أختي نالت علامة مميزة عند نيلها الشهادة الابتدائية (السرتفيكا)، فحصلت على كرسي مجاني، هذا الكرسي المجاني خولها دراسة مجانية للمرحلة الإعدادية التي تشمل أربعة صفوف: السادس والسابع والثامن والتاسع، كما خولها إقامة داخلية مجانية في مدرسة معاوية في الجميلية في حلب، وكان النظام يقتضي حرمان الطالبة من تلك المنحة إذا رسبت في صفها. أذكر أن ذلك النظام كان سارياً حتى عام ١٩٥٢، ولاأدري إن استمر بعد ذلك.

المدرسة الابتدائية الأولى للبنات

كان التعلم مفخرة في ذلك الوقت، وكانت الأسر تتباهى بأبنائها المتعلمين، فمن نال شهادة السرتفيكا في عفرين في الأربعينيات كمن ينال الآن شهادة الدكتوراه. أما بالنسبة لي فقد كان ذلك التعلم يعود علي بالتعب، فقد كان والدي يكلفني منذ نجاحي إلى الصف

الثالث الابتدائي بكتابة الرسائل بشكل دائم إلى أخي المتطوع في الجيش، وإلى أقربائه. طبعاً كتابة الرسائل ليست عبئاً، ولكن والدي كان يصر على رسالة لها ديباجة خاصة على مزاجه لايحيد عنها وهي: سلام سليم، أرق من النسيم، على قلب السقيم. وبعد فنحن بخير، ولا ينقصنا سوى قلة مشاهدة نور وجهكم الباهي اللطيف، الذي سنراه عن قريب بجاه الحبيب. منذ ذلك الوقت أكره الكتابة المفروضة الخالية من أية مشاعر.

في صباحات الأيام الأخرى، كان الوالد يطلب مني قراءة القرآن، وكان أجري مقابل ذلك فرنكاً واحداً، أما يوم الجمعة فكان الأجر يرتفع إلى فرنكين.

البازار في عفرين

بنيت أرض البازار القديم (السوق الزراعية) مع البنى التحتية لعفرين حين تأسيسها عام ١٩٢٥. يذكر مؤرخو عفرين أن البازار أنشئ عام ١٩٢٧. خصصت لها أرض مربعة، رصفت بالحجارةودحلت، يحدها من الشمال المدرسة الابتدائية، والشارع المستقيم الذي ينصف عفرين ويمتد حتى أقصى شمالها، والجامع القديم الأول في عفرين، وبعض الدكاكين التي كان معظمها مخصصاً لصباغة الصوف. أما من الشرق فكان يحدها طريق منخفض يفصل بينه وبين الخان وبعض الدكاكين. من الجنوب أشجار الصنوبر التي كانت تفصل بينه وبين السجن، وإلى جنوبه أيضاً كانت تقع غرفة الإنتاج التي كان لها في ذلك الوقت دور مهم. أما من الغرب فكانت تحدها الحديقة العامة والسراي. كان للبازار سور من أطرافه الأربعة، ماعدا طرف الحديقة والسراي فقد كان سور الحديقة وجدار السراي يشكلان حدها الغربي. السور الشمالي كان واطئاً ومنفتحاً على المدينة من الشمال، وكانت أرض البازار من تلك الجهة يستوي مع مستوى الطريق الصاعد إلى المدينة. أما من الطرف الشرقي، فكان الطريق ينخفض عن مستوى أرض البازار كثيراً، وكان في وسط السور من تلك الناحية درج يفضي من البازار إلى الطريق. أما من الجنوب فكان السور يرتفع أيضاً عن مستوى الأرض كثيراً، وكان في تلك الجهة أيضاً درج يفضي من البازار إلى الجنوب،

وبمحاذاة السور بين البازار وغرفة الإنتاج (شعبة الحزب حالياً) كان ينحدر طريق تسير فيه السيارات المحملة ببضائع البازار إلى جنوب البازار بعد حسم رسومها من غرفة الإنتاج، ثم جنوباً إلى الطريق العام مارة من وسط فجوة في جدار عال ملتصق بجدار السجن. ذلك الجدار كان جدار خان قديم، وتلك الفجوة كانت باب ذك الخان الذي كان مقاماً عند طرف الجسر قبل نشوء عفرين، لاستراحة المسافرين القادمين من أنطاكية والريحانية،

دائرة الإنتاج سابقاً وكانت غرفة واحدة
شعبة الحزب حالياً

والذاهبين إلى كلس وحلب عابرين نهر عفرين من فوق الجسر المعدني الذي أنشأه الألمان في عام ١٨٩٧ وهو غير الجسر الحالي وغير الجسر الذي قبله والذي جرفه فيضان النهر.

في الجنوب أيضاً كان سور البازار ينفتح شرق السراي، ليصبح طريقاً للسيارات والمتسوقين القادمين إلى البازار، والخارجين منه، و في وسط البازار، وفي ثلثه الجنوبي بالضبط، شرقي السراي كان يرتفع خزان المياه الذي كان يغذي مؤسسات الحكومة في عفرين، والحنفية العمومية قرب المدرسة، وكنا نطلق عليه اسم (بومبا) أي مضخة، وكنت

قبلاً أظن أن معناه المدفع. كان خزانه الإسمنتي يرتكز على أربع أعمدة طويلة إسمنتية، توصل بينها قواطع وجسور إسمنتة، وكان له سلم معدني يرتفع حتى أعلى الخزان، يصعده العمال الذين يكلفون بتنظيف الخزان. (مازال الخزان قائماً حتى اليوم ولا أدري إن كان يضخ فيه الماء حتى الآن).

أرض البازار القديم ـ امتلأت الآن بالأبنية الحكومية

البازار في مدينتي عفرين كان مهرجاناً ريفياً حقيقياً، كرنفالاً، عرساً: أصوات، زحمة باعة، متسوقون ومتسوقات، لايمكن أن تخطو خطوة فيه إلا بشق النفس، كل ما تريده تجده في البازار: القماش والطعام، والفواكه والخضار، الزيت والزيتون، أواني المطبخ، عدة الفلاحة، البسط والسجاد، الخبز واللحم، صرافة النقود. في البازار تجد الصديق الذي طال بعاده، والمحب الذي تتمنى لقاءه، حتى من كان يخشى عدواً له كان يمكن أن يلتقي به في البازار، فكثير من الثارات والحسابات الدامية كانت تصفى على أرضه.

كبرت المدينة ونما البازار، وأصبح أكبر سوق زراعية في المنطقة كلها. قال أبي: في يوم البازار (الأربعاء) كا نت فرقة موسيقية كاملة من الطبالين والزمارين بإيعاز من الدولة، تقرع

طبولها، وتنفخ في زرناياتها، وتجول في مدينة عفرين مارة من أمام السجن والسراي، لتحط الرحال في أرض البازار، تشجع الناس لزيارة البازار والمدينة. قرى كثيرة صارت تطلق اسم البازار على مدينة عفرين كلها، وانمحت كلمة الأربعاء من الأيام لتحل بدلاً منها كلمة البازار. لم تكن السيارات معروفة إلا قليلاً. في المنطقة كلها كانت ثلاث سيارات أو أربع تنقل المسافرين إلى حلب والمدن الصغيرة حول عفرين. كانت واسطة النقل الأولى بين عفرين وقراها هي الحمير. وفي يوم البازار كنت تظن أن أولئك الفلاحين القادمين على ظهور حميرهم سيشتركون في سباق كبير للحمير. كان والدي وعمي من الأوائل الذين تركوا قراهم للسكن في عفرين، وحين بني بيتنا في عفرين واستقررنا فيه كانت عفرين ـ الكبيرة الآن ـ لاتتجاوز أربعة أحياء. ورغم نزوح أبي من القرية، فقد ظل مرتبطاً بها برباط ثخين، فهو لايتأخر عن زيارة الأقرباء في القرية وهم لايتأخرون عن زيارته، ورغم عبوسه الدائم فقد كانت ابتسامة عريضة ترتسم على فمه حين يلتقي بهم، وأحياناً ضحكة مجلجلة تظهر أعماق فمه.

لم يكن بين سكان كل القرى في منطقتنا من هم أكثر ولعاً بالبازار من سكان قريتنا (جويق). ليرة واحدة يملكونها كانت كافية لنزول الواحد منهم إلى البازار، فالذهاب والإياب مجاناً على ظهر الحمير، أما الليرة فيشترون بها علبة تبغ (حموي لف)، وحين اشترى (حسن قجي) بعد ذلك بكثير سيارة، و قادها على طريق الضيعة، واختفت الحمير تدريجياً، كانوا بحاجة إلى ثلاث ليرات: اثنتين أجرة الذهاب والإياب، وليرة للتبغ.

في يوم البازار كان الناظر إلى دارنا، يظن أن سوق الدواب قد انتقل من شرق المدينة إلى أمام دارنا، أكثر من عشرة حمير لأقرباء أبي وأصدقائه من القرويين كانت ترابط هناك. كان بيتنا في ذلك اليوم يعيش حالة استنفار قصوى، فأبي لايذهب إلى البستان، وأمي تتفرغ تماماً للضيوف، وأختي وأنا أحياناً لانذهب إلى المدرسة. أختي تساعد أمي، وأنا الصغير أقف أمام الدار متباهياً أمام أصحابي الصغار بذلك العدد الكبير من الحمير. كان بعض ضيوفنا يتناول الفطور عندنا قبل النزول إلى البازار، وبعضهم يتغدى بعد العودة منه، وطبعاً

كانت الحمير بحاجة إلى علف وغذاء، وعندما كنا نتأفف كان الوالد ينهرنا.

عفرين كلها كانت تغلي اجتماعياً في يوم البازار، لاتبقى قرية من قراها الكثيرة دون أن يكون لها رائد من رواد البازار. وبالإضافة إلى قرى جبل الأكراد، كان الزوار المتسوقون يأتون من مناطق أخرى وبخاصة من دارة عزة وترمانين والدّانا ونبّل وإعزاز ودير جمال، إما ليعرضوا بضائعهم أو ليتسوقوا من البازار، أو الاثنين معاً.

من الصور التي مازالت في خاطري عن البازار:

الصورة الأولى: لي وأنا أبيع شراب الليمون في وعاء زجاجي ومعي كاسة للشرب بها. كنت أتنقل ببضاعتي في البازار، وأنا أصيح وأدعو لشرب الشراب البارد، فقد كانت قطع البوظ (الثلج) تبرّد شرابي الذي أبيعه، كنت في نهاية جولتي أسلم الغلة لصاحب الشراب، وأنال أجري.

الصورة الثانية: لي أيضاً وأنا أعمل أجيراً عند صبحي شاوي الكباب وبائعه، ما أدهشني من صبحي هذا أنه كان يغش، ففي ليلة البازار رأيت ـ وأنا أساعده ـ كم مزج من البرغل مع الكباب لتزداد كميته.

الصورة الثالثة: كانت لعربة الكازوز والشراب. كان صاحبها يهيءالمياه الغازية على عربته، فقد كان له قِدْر لضغط الكازوز، فما أن تطلب كأساً من الكازوز حتى يفتح صنبوراً صغيراً تتدفق منه المياه الغازية البيضاء، وكان على عربته قالب من البوظ، وله مبشرة معدنية يدفعها ويضغطها على القالب، فتمتلئ بالثلج المبشور، فيفتحها ويضعها في كأس الكازوز، لتطفئ حر الصيف. أما إذا طلب الزبون شراباً، فكانت عنده زجاجات مليئة بعدة ألوان من الشراب ملونة بلونه: التوت، الليمون، البرتقال، الكرز. يصب في أسفل الكأس قليلاً منه، ثم يملأ الكأس بالماء ويحرك المزيج إلى أن يتجانس، ثم يضع الثلج المبشور، فيشرب الزبون شراباً لذيذً حلواً بارداً.

الصورة الرابعة: لنوع غريب من القبان كان له عمود خشبي طويل، يضع

رجلان طرفي العمود على كتفيهما، ويوضع على العمود القبان الذي يتكون من ذراعين: ذراع قصيرة لها في نهايتها كلاّ ب، تعلق بها البضاعة المراد وزنها وتكون ضمن كيس، وذراع طويلة مدرجة ينزلق عليها مزلاق منته بزنة نحاسية صفراء، يستطيع المرء بزلقهاعلى الذراع، وتوازنها مع الذراع الثانية أن يعرف وزن البضاعة.

الصورة الخامسة: لصرّاف في كفه نقود معدنية يخشخشها وهو ينادي: صراف... صراف . أهم عملة كانت تبدل أو تصرف في البازار، كانت العملة التركية، فعفرين تتصل من جهات ثلاث بتركيا.

الصورة السادسة: لبائع البوظة، وكانت البوظة تباع مغلفة بالورق وتوضع ضمن علب خشبية مربعة، وأشهر بوظة كانت تباع في البازار، كانت بوظة نبيل، وكان ثمن القطعة فرنكاً واحداً. كان البازار قد شارف على الانتهاء في نهاية يوم حار. قطع البوظة الباقية في العلب ذابت وتحولت إلى سائل يشبه الحليب. رأيت بأم عيني كيف أزال البائع الأوراق التي كانت تحيط بقطع البوظة، ورماها، ولاأدري من أين جلب كأساً، ثم أخذ يبيع ذلك الشراب: كل كأس بفرنك. وقد أقبل عليه الناس، وشربوا كل شرابه.

الصورة السابعة: كانت مفزعة رهيبة، كانت تصفية حسابات ثأرية، مازالت الأصوات والصور مرتسمة حتى الآن في مسمعي وأمام عيني: طلقات رصاص تبعتها طلقات أخرى. ركض كل أهل البازار نحو مصدر الطلقات تاركين بضائعم، وبسطاتهم. ركضت مع الراكضين، كان على الأرض جثتان غطيتا على عجل ببعض البسط. علمت بعد ذلك أن بعضهم أرسل صبياً حدثاً ليقتل غريمهم، لأن الحدث لايحاكم كالكبار. نفذ الصبي مهمته وقتل غريمه، فقام صديق المقتول ولحق بالصبي فقتله، وسقط الصبي المقتول قرب المغدور الأول.

الصورة الثامنة: لحادثة خطف هزت عفرين كلها. المخطوفة سهام تسكن في عفرين مع خالتها التي هي جارتنا، وهي معلمة في مدرسة البنات الابتدائية. الخاطف كان قريبها وكان ضابطا طياراً. كانت سهام جميلة جداً، استطاع الخاطف أن يخرجها من

المدرسة بطريقة ما، حيث كانت سيارة الجيب العسكرية وفيها صديقه بانتظارهما.

خطفاها وسارا بالسيارة بسرعة مارين بها من أمام الجامع ثم نـزولاً إلى أرض البـازار طبعاً لم يكـن اليـوم يـوم أربعـاء. سـاروا بالسـيارة علـى أرض البـازار مـتجهين إلى المخـرج الجنوبي للبازار حيث الدرج ظانين أنه طريق مستو، نزلوا بسيارة الجيب من فـوق الـدرج، ووصلوا إلى الطريق العام، واتجهوا باتجاه حلب بأقصى سرعة. استنفرت عفرين كلـها لهـذا الحادث، أخبر المخفر بالحادث فأخبر مخفر إعزاز لقطع الطريق عند مفرق إعـزاز، وخـرج كل من له سيارة في عفرين في إثر الخاطفين، وأذكـر مـنهم عـزت الشـوفير. في مفـرق إعـزاز أوقف الخاطفان من قبل شرطة إعزاز، وأعيدت الفتاة إلى ذويها. بالغ الناس في الرواية فقال بعضهم إن الطيار قد حط بطيارة على مدرج منخ المهجور وأنه لو وصل إلى المطـار لطـار بهـا دون أن يدركه أحد.

الجامع الأول

الصورة التاسعة: لمباراة بكرة القدم بين فريق عفرين وفريق إعزاز. جرت المباراة على أرض البازار، كيف استطاعوا اللعب لاأدري، فأرض البازار غير مفروشة بالعشب بل مرصوفة بالحجارة والبحص، ثم لم يكن هناك خشبات للمرمى. المهم أن الفريقين لعبا والظاهر أنهما كانا من الفرق الشعبية، أو كما نسميها في المدن فرق الأحياء، لعب الفريقان وانتصر فريق إعزاز على فريقنا، وكان تكريمه من قبل أطفال عفرين سيلاً من الحجارة انهال على سيارتهم، وهم في طريق العودة إلى مدينتهم.

الصورة العاشرة: لبائع المشبك كريم وهو يغرق عجينته في الزيت المغلي بشكل دوائر حلزونية، فتقلى بذلك الزيت الحار مصدرة أصواتاً وفقاعات، متحولة إلى ذلك اللون العسلي المشتهى للمشبك. يداه وهما تصنعان المشبك لم تكونا يدين بل لولبين. بسرعة عجيبة توضع العجينة في الأسطوانة، ثم تضغط وتصب في الزيت. لم يكن لكريم هذا زوجة أو أولاد، ولم يكن له بيت. كان مولعاً بتربية الحمام وكان يسكن هو وحمامه في بيت من الصفيح أقامه في منطقة خالية من البيوت في أعلى التلة التي تتربع عليها مدينة عفرين. أما كيف كان يقام البازار، وتعرض البضاعة فمعظم البائعين وخاصة بائعي القماش كانت لهم خيام ينصبونها على أربعة قوائم خشبية. تفتح الخيمة من جهة واحدة، فتصبح كالغرفة تماماً ولكن غرفة لانوافذ لها ولامنفذ للهواء. هذه الخيم كانت تشغل معظم أرض البازار. أما بائعو الفواكه والخضار، فكانوا يعرضونها في العراء، وكذلك أصحاب البسطات الصغيرة. في الزاوية الجنوبية الشرقية، كانت تباع الحبوب، والأقطان، وفي الزاوية الشمالية الشرقية، كانت تباع الخضاروالفواكه، وفي الجنوب كان أصحاب البسطات الصغيرة وعربات الكازوز والشراب، وبائعو الكباب.

كان للبازار رسم أو ضريبة تؤخذ من العارضين. أذكر أن جارنا مصطفى النعسان ـ وكان متعلماً يعرف القراءة والكتابة ـ كان في يده في يوم بازار دفتر إيصالات لتحصيل رسوم الأرضية من الذين يشغلون أرض البازار.

البضائع الثقيلة كحمولات الحنطة والشعير والقطن، كانت تحمّل على سيارات شحن (كميون)، تقف أمام غرفة الإنتاج لدفع رسم الإنتاج، ثم تشحن إلى كل الجهات خارج عفرين. أتذكر مراكز الإنتاج على الطرقات الخارجة من عفرين لمراقبة دفع الرسوم، وآخر مركز أتذكره كان على مفرق مدينة إعزاز.

كل من كان له أي عمل في دوائر عفرين: السراي، السجن، المدرسة، المالية، كان ينهي عمله مع ارتياده البازار، ولذلك كان الازدحام شديداً ليس في البازار فقط، بل في كل مركز حكومي، ومازال ذلك سائداً حتى يومنا هذا حتى المساجين كان يسمح لذويهم بزيارتهم في ذلك اليوم، وأحياناً كان يسمح لذوي السلوك الحسن منهم بالخروج بضع ساعات لزيارة الأهل خارج السجن. أذكر سجيناً من أقربائنا، سمح له في يوم الأربعاء بالخروج من سجنه لزيارتنا وقضاء نهار كامل عندنا.

صندوق السمع

وهوماكان يطلق عليه بالفصحى (الحاكي)، وهو الفونوغراف أو الغرامافون. أما نحن في عفرين فكنا نسميه (الساز). كان جميلاً مدهشاً في شكله وفي صوته. كان يتألف من صندوق مربع جميل من الخشب الثمين، له في وجهه الأيمن ذراع صغير يدار يدوياً لتعبئته وتدويره، فلم تكن الكهرباء قد سرت بعد في شرايين مدينة عفرين. كانت تلك الذراع تدار إلى أن يشد النابض أو الراسور حيث يدوّر القرص الذي يحمل الأسطوانة. فوق الصندوق المربع كان ينتصب بوق كبير معدني، له فوهة كبيرة مثل فوهة البركان، ينتشر منها الصوت. للبوق ذيل ينتهي فوق الصندوق، متصل بواسطة ذراع متمفصل من النيكل الأبيض بكتلة معدنية مدورة بيضاء لامعة من النيكل أيضاً، الكتلة المدورة تثبّت في نهايتها إبرة لها رأس مدبب توضع على الأسطوانة حين تدور. الذراع المعقوف المتمفصل يمكن طيه حين لايعمل الجهاز، أما حين كان يعمل فكان الذراع القصير المنتهي بالإبرة يمد لتوضع الإبرة على الأسطوانة، فتدور الأسطوانة وتنتشر الأنغام. على العموم كان شكله رومانسياً، وخاصة

بوقه الكبير المحزز وذراعه المتمفصل اللين في حركته. أما صوته فكان عجبة العجائب في ذلك الوقت، ذلك أن تسمع صوت مطرب أو مطربة يصدر من العلبة، أو من رأ س الإبرة الصغيرة المدببة. كنا نقف مذهولين مدهوشين حين تبدأ الأسطوانة بالدوران، ويصدر صوت يعلن في البدء عن شركة الأسطوانات: أسطوانات بيضافون تقدم... أو أسطوانات صوت سيده تقدم... ثم تصدح أصوات المطربين والمطربات: أم كلثوم، أو أسمهان أومحمد عبد الوهاب أو ليلى مراد أو عيشا جان أو كاووس آغا.

صندوق السمع الأول كان عند العم مصطفى النعسان، جارنا وصديق والدي. كان منتهى سعادتي حين أكون في بيتهم أن يبث الحيا ة في صندوق السمع: يدير الذراع الصغير لتعبئته، ثم يضع الأسطوانة، ويضغط على مفتاح، فيدور القرص الحامل للأسطوانة، وتدور الأسطوانة، ثم يمسك بذراع القرص المعدني السميك المدور المنتهي بالإبرة، ويضعه بكل دقة وهدوء عند حافة الأسطوانة، فتصدح الأصوات والأنغام والأغاني.

تقول أمي: إن أخي الكبير كان مولعاً بسماع الأصوات من الحاكي، وكان العم مصطفى يعذبه قبل أن يلبي طلبه بإسماعه شيئاً ما، فيشترط عليه شروطاً قاسية، كأن يبلع رغيفاً من الخبز الحاف. طبعاً في النهاية يتخلى العم مصطفى عن شروطه التعجيزية ويلبي طلب أخي. أنا كنت صغيراً جداً: خمس سنوات أو أقل، ولم يكن لدي الجرأة لأطلب مايطلبه أخي، ولكني كنت أشبع رغبتي حين يسمع أخي صوت الحاكي فأسمع معه.

صندوق السمع الثاني كان عند سمان بأسفل حارتنا، في الشارع الموازي لشارع راجو. كان اسمه صبحي، وكان لطيفاً جداً مع الأطفال، يداريهم ويسايرهم ويلاطفهم. هو نفسه الذي اشتغلت معه في يوم من أيام البازار في بيع الكباب . العم صبحي كان يسمح لنا نحن الصغار بالاقتراب من الفونوغراف ولمسه بل وتدوير الذراع الصغيرة لرص النابض المعبئ للحاكي، ووضع الأسطوانة على القرص حاملها. أما الذراع المعدنية، ذات القرص المعدني السميك المنتهي بالإبرة، فكان لايسمح لنا بوضعها على الأسطوانة خشية تجريح الأسطوانة

أو كسر الإبرة. كنا ندفع فرنكاً مقابل أ ن يسمعنا أسطوانة ما. أذكر أنني استمعت في دكانه إلى أسطوانة للمطرب الكردي كاووس آغا.

الراديو الأول

الراديو الذي رأيته في عفرين، كان عند جارنا العم مصطفى نعسان، كان هاوياً لاقتناء كل مخترع جديد. عندما اشترى ذلك المذياع (الراديو)، حدث هرج ومرج في حارتنا، فقد تجمع كثير من الكبار والصغار وهم يتأملون الصندوق الكرتوني الكبير المحمول على ظهر حمار، فالطرقات غير معبدة، والسيارات لاتستطيع السير فيها. لقد علموا بأنه جهاز عجيب غريب ينقل الأصوات من أماكن بعيدة، دون أن يكون في داخله إنسان ما . المشوار الثاني للحمار كانت لجلب المدخرة (البطارية) التي ستغذي الراديو، فليس في عفرين كهرباء بعد. كانت البطارية مثل بطارية السيارة تماماً: إطار أسود، وسدادات وقطبان على سطحه.

قبل المساء أخرج الجهاز لتشغيله والاستماع إليه. كان جميلاً جداً: صندوق من الخشب اللامع الجميل الثمين مستطيل الشكل، له من الأمام واجهة من القماش، في وسطها عين بللورية (العين الساحرة)، خلف القماش فراغ أسود مستدير إنه مكبر الصوت، في القسم الأسفل من الواجهة خطوط وأرقام المحطات ، وعلى طرفي الخطوط والأرقام مفاتيح مدورة. الواجهة مزينة بأ فاريز من المعدن الأصفر اللامع وعليها حروف بلغة أجنبية تحد د اسم الشركة الصانعة. الجهاز من الخلف ليس جميلاً كما من الأمام: غطاء فيه فتحات كثيرة تمتد منها أشرطة كثيرة منها شريطان غليظان أوصلا بالبطارية.

أدار العم مصطفى مفتاحاً من الأيسر، فأضاءت الواجهة بألوان جميلة جداً، ثم بدأت العين الزجاجية بالاحمرار، ثم أضحت خضراء زاهية جميلة، وبدأت الواجهة القماشية بالاهتزاز، وأخذت تصدر أصواتاً مشوشة من الجهاز. أدار العم مصطفى مفتاحاً آخر، فتحركت إبرة دقيقة على الواجهة مارة من فوق تلك الخطوط والأرقام، لتستقر على رقم ما، فصدر صوت بالعربية، ثم تحرّ كت الإبرة فصدر صوت آخر باللغة الأجنبية، ثم على رقم

آخر فصدحت أغنية. الجميع أصيبوا بالدهشة، يا إلهي أيمكن أن يكون داخل الصندوق كل هؤلاء الناس. على السطوح كان العم مصطفى قد مد الآنتين (اللاقط) على عمودين وجهز كل شيء للعمل.

في تلك الليلة أذكر أن الغرفة الكبيرة في بيت مصطفى النعسان امتلأت بالجيران، كلهم جاؤوا ليروا ويسمعوا تلك العجبة. بدأ العم مصطفى يتحدث عن جهازه العجيب، وكيف أن له عدة موجات وفي كل موجة عشرات المحطات الإذاعية. استقرت الإبرة أخيراً على محطة عربية تذيع أخباراً عن فلسطين. كان العم مصطفى يقوم بدور الترجمان للعرب والأكراد، فلاهؤلاء يعرفون الفصحى، ولاهؤلاء يعرفون العربية، أما كيف كانت ترجمته فلا أدري.

كانت البطارية كما ذكرت مثل بطارية السيارة، وقد فرغت مرة، فرأيت كيف حمّلت البطارية على ظهر حمار، وأخذت إلى محطة ضخ المياه، عند رشيد اللوكسجي، ونقل إلينا ـ نحن الصغار ـ أن رشيد اللوكسجي، سيشحنها لتعمل من جديد.

الراديو الثاني الذي استمعت إليه ولم أره، كان في مقهى واهان، كنت صغيراً لم يكن يسمح لي بارتياد المقهى ولا يجوز، ولكن واهان كان قد مد شريطاً من الراديو إلى مكبر للصوت نصبه على واجهة المقهى، ليسمع الجميع الأخبار والأغاني وغير ذلك. من ذلك الميكروفون سمعت نبأ اغتيال الزعيم حسني الزعيم.

بازار الدواب

بازار الدواب كان يقام على هامش البازار الكبير، وكان يقام قبل البازار بيوم واحد، أي يوم الثلاثاء. كان ذلك البازار يقام في الجهة الشمالية الشرقية من عفرين، عندما يبدأ الطريق القادم من قرى كمروك وآستير وتلّي خلي، وتل طويل بالتماس بعفرين، والدخول إليها على سفوح تل طويل. هذا البازار كان يقام في العراء، لم يكن له أرض مرصوفة ولاسور، بل كانت أرضاً في البرية على أطراف المدينة.

الاثنين مساء، كانت تنهال على عفرين كل أنواع الحيوانات، من كل أطراف

المنطقة... طريق تل طويل... طريق راجو... طريق جند يرس، وتتجمع في أرض بازار الدواب، الأبقار والخيول، والخرفان والماعز والحمير والدجاج بكل أنواعه والطيور وحتى الجمال، الدجاج والديوك والطيور كانت تباع في البازار العام أيضاً. في بازار الدواب هذا باع والدي حمارتنا البيضاء، التي بكينا أنا وأختي كثيراً عليها، فقد كانت صبوراً تتحملنا، وتحملنا إلى البستان دون أن يقودها أحد، وتعيدنا إلى البيت في عفرين وحدنا أحياناً. أصر أبي على بيعها، فقد ولدت كراً صغيراً جميلاً، ارتأى أبي أن يربيه ويكبّره. في البازار كانت تعقد الصفقات لشراء تلك الحيوانات، وتعود تلك الحيوانات المشتراة إلى القرى، ولكن ليس بذلك الزخم الذي أتت به. كان طريق كمروك يمر بوسط بستاننا المقابل لجبل حنة، وحين يصادف نومنا في البستان يوم الاثنين مساء، كنا نستيقظ في الساعات الأولى من الفجر على صوت حوافر تلك الحيوانات، وأظلافها، وهي سائرة في طريقها إلى البازار.

في ذلك البازار، باع أبي بقرتنا أيضاً، ولكن البقرة لم تبع بالسرعة التي بيع بها الحمار الأبيض، واضطر أبي إلى أخذ البقرة عدة مرات إلى البازار دون أن تباع، ولشراء البقرة أو الحصان يكشف عن أسنانها ـ حسب ما أعتقد ـ لمعرفة عمرها الحقيقي، ولذلك كان جارنا العم مصطفى يذيع نكتة عن بقرتنا مفادها أن بقرتنا المسكينة من كثرة ترددها على بازار الدواب، والكشف عن أسنانها ـ دون أن تباع ـ أصبحت تكشف عن أسنانها فور الوصول إلى البازار، ودون أن يطلب أحد منها ذلك.

هذا البازار كان شريان عفرين، وكل المنطقة، إذ كان يغذي كل القرى بكل ما تحتاجه من أنواع الحيوانات، وكان الأمر عادياً في اليوم العادي للبازار، ولكن عند قدوم عيد الأضحى، كان يظهر الدور الكبير لذلك البازار في تقديم كل الأضحيات اللازمة للذبح في صبيحة يوم العيد.

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

الزراعة حول مدينة عفرين
القطن والمحركات والجرارات الأولى

ليس أجمل من طبيعة منطقتنا، وتضاريسها. دعوت صديقاً لي يعيش في روسيا منذ ثلاثين عاماً لزيارة منطقتنا، حين رآها دهش من جمالها، وقال: من الممكن أن نرى في روسيا خضرة على مد النظر: سهولاً وغابات. ولكن هنا ترى جبالاً تعلو جبالاً، وسهولاً تحاذي سهولاً، وسفوحاً ووديااً، وكل أنواع الشجر. إن مانراه هنا يشبه اللوحات الطفولية الجميلة التي كنا نرسمها ونحن صغار، حين كان المعلم يطلب منا رسم منظر طبيعي.

كل ماحول مدينة عفرين أخضر جميل. على كتف النهر، قرب محطة المياه حديقة البلدية للشتول، على الطرف الغربي للجسر بستان واهان، كروم الزيتون شرقي النهر، في الجنوب السهول الخضراء والبساتين الممتدة حتى الباسوطة.

هدفي من هذه المقدمة، الإشارة إلى أهمية الزراعة والمزروعات في حياة عفرين وفي تلك الأراضي الخصبة. إن الزراعة الجديدة التي كانت تنتشر بسرعة في الخمسينيات في السهول المروية في عفرين، كانت زراعة القطن ـ الذهب الأبيض ـ انتشرت تلك الزراعة انتشاراً واسعاً في المنطقة، وبخاصة أنها كانت تدر أموالاً طائلة على أصحابها. ولأن القطن يحتاج إلى الماء، فقد بدأت مضخات الديزل تنتصب على ضفاف نهر عفرين تنقل المياه إلى تلك النبتة المتعطشة للماء. في الخريف كانت جميع باحات الدور تمتلئ بذلك المنتوج الأبيض الجميل الذي كان يعبأ بعد ذلك في شلاّت (أكياس) كبيرة لينقل ويباع. أصبح للقطن عمال موسميون رجال ونساء، تمتلئ بهم خطوط الأرض الخضراء، ليسحبوا بأناة تلك التيلة البيضاء، ويضعوها في أوعية مخصصة للقطاف. أذكر أن أجرة الرجل قاطف القطن كانت في اليوم ليرة وربع الليرة، أما المرأة فكانت أجرتها ثلاثة أرباع الليرة. وكان ذلك القطن كله ينقل إلى حلب، فقد بدأت في سورية في ذلك الحين الصناعات النسيجية الأولى، وبخاصة القطنية، وانتشرت في حلب معامل شبارق وصائم الدهر ورفيعة وغيرهم. وعلى مدخل حلب

من جهة عفرين وإعزاز كانت المحالج الأولى قد بنيت لتستقبل القطن المحبوب وتحوله إلى قطن مندوف، ثم إلى خيوط فنسيج وأقمشة، كان يصدّر الكثير منها في ذلك الحين إلى أوروبة، وما يزيد من القطن الخام كان يصدر إلى الخارج موفراً للوطن المستقل حديثاً، عملة صعبة يقضي بها شؤونه. كان القطن يباع في البازار العام، وأحياناً في الحقول نفسها، وكان القطاع الخاص هو الذي يشتريه، لأنه هو الذي يصنّعه، وهو الذي يصدّره.

في زيارة لي في التسعينيات لأحد المعامل المؤممة مع صديق لي، أرانا المشرف على المعمل آلات منسّقة، وقال: بواسطة هذه الآلات كانت تصنع أقمشة رفيعة المستوى، ناعمة ـ أثواب العرائس ـ تصدر لفرنسا وإلى باريس العاصمة بالذات.

إن انتشار زراعة القطن استدعت مشاريع واسعة لزراعته، ولذلك بدأت الاستثمارات الواسعة تنتشر حول عفرين وفي سهولها. أذكر أنني زرت قريباً لي مشرفاً على مضخة لضخ المياه من نهر عفرين لمشروع قطني، لم أر مضخة بحجمها. قال لي قريبي: إنها بقوة خمسة وتسعين حصاناً، وإن لها محركاً صغيراً لإقلاعها ودورانها.

إن زراعة هذه الحقول الواسعة، استدعت آلات للحراثة، غير المحراث الروماني القديم الذي لم يعد مجدياً حيث يقلب التربة بسماكات بسيطة، ولذلك انتشرت الجرارات في ذلك الحين، وكان انتشار الجرارات المجنزرة، أكبر بكثير من تلك التي نراها الآن بالإطارات المطاطية، أشهر ماركة للجرارات المجنزرة كان (كاتر بيلار)، وأشهر ماركة للجرارات ذات الإطارات كان (فركسون). كنا نقف مدهوشين أمام جبروت تلك الجرارات المجنزرة التي كانت تساوي الدبابات في حجمها وقوتها، كان لايقف أمامها عائق دون أن تتحرك إلى الأمام مهما غاصت سلاسلها في الوحل. كنا نسرّ ـ نحن الصغار ـ حين يعلموننا عن أسرارها، وأنها ليس لها مقود بل لها ذراع كابح لليمين، وذراع كابح للشمال. فإن شدت الذراع اليمنى، دار الجرار نحو اليمين، وإن شدت الذراع اليسرى دار الجرار نحو اليسار، وإن شد الاثنان توقف الجرار في مكانه. كانت أصواتها تدوي على مدى السهول

وهي تفلح الأراضي شاقّة أعماقها لتهيئتها لزراعة القطن وغيره.

أما الجرارات ذات الإطارات المطاطية، فكانت أصغر، وذات قوة أقل. ولكن الاثنين كانا يعملان على المازوت. كان أصحاب الأراضي الصغيرة المحدودة يشترون الجرار (فركسون) لأعمالهم الزراعية الخاصة. كان لبيت (أوسي مصطفى) جرار فركسون أزرق، وقد رأيته في إحدى المرات يدير إحدى مضخات المياه، حيث وصل بين دولاب مركّب على الجرار وبين دولاب المضخة بقشاط. كان الفركسون صغيراً بالنسبة إلى الجرار المجنزر، وكان صاحبه يستطيع أن يسير به على الطرقات العامة، و داخل عفرين، فلم يكن له قرقعة المجنزرة، كان يستخدم ـ بالإضافة للفلاحة ـ في نقل المحاصيل والبشر، بتعليق مقطورة خلفه.

الإقطاع في منطقة عفرين

يعتقد الباحثون أن العشائر الكردية التي استوطنت منطقة جبل الأكراد قديماً، كانت عشائر متنقلة حيث كان معظمها يعتمد على تربية الماشية. وإن كان لها مستقرات دائمة في الشتاء، فإنها كانت في أيام الرعي والربيع تنتقل كلها بخيامها، وأهلها ومواشيها ودوابها وتحط في مناطق الكلأ والمرعى، إلى أن تنتهي منه فترحل إلى منطقة أخرى لتشبع ماشيتها ودوابها: رأسمالها الوحيد والأساسي. وقد كنا ـ ونحن صغار ـ نسمع من الكبار أن معظم العشائر الكردية كانت من الكوجر وهم الأكراد البدو الرحل الذين يعتمدون على رعي الماشية والاعتياش منها. ونحن مازلنا حتى أيامنا هذه نرى ظاهرة العشائر المتنقلة الباحثة عن المرعى والعشب، متجاوزة في ترحا لها الحدود بين الدول. مثلاً عشائر شمر العربية التي تتنقل بين العراق والأردن وسورية. وكثيراً مانرى حتى الآن في منطقة عفرين وفي قرى جبل الأكراد، بدواً رحّلاً قطعوا مع مواشيهم مئات الكيلومترات بحثاً عن الكلأ والمرعى، وخاصة في السنوات المحلة. في طفولتي في الخمسينيات رأيت مثل هذه الحالة، وأذكر بالضبط أنني كنت واقفاً فوق الجسر أراقب شاباً بدوياً وصل هو وقطيعه إلى النهر. ارتوى القطيع من النهر ونزل هو ليسبح، وأذكر أن شعره كان ذا ضفائر مجدولة طويلة، عامت

فوق الماء عندما سبح.

إن العشائر الكردية كانت تنتقل مابين تركيا الحالية وسورية، بحثاً عن الكلأ والمرعى حيث لم تكن هناك حدود في ذلك الزمن. وحين نشأت الإمبراطورية العثمانية، وتوسعت، وأصبحت حدودها تمتد من شرق تركيا إلى فيينا في قلب أوروبا، ومن شمال تركيا الحالية إلى اليمن في الجنوب، مع الشمال الإفريقي كله، اعتمد السلاطين العثمانيون في توطيد حكمهم في الأصقاع البعيدة، على الجيوش القوية المسلحة، والمدربة تدريباً جيداً، وفي المناطق القريبة من مركز السلطة اعتمدت بعد الفتوحات على رؤساء العشائر والقبائل في توطيد الأمن والاستقرار، ولذلك كانت الدولة العثمانية تمنح لرؤساء العشائر مساحات من الأراضي الأميرية (التابعة للدولة)، لتكون منطقة مراع لها، ومنطقة نفوذ، شرط أن يؤمن رئيس القبيلة الحماية والاستقرار لمنطقته، ويقضي على الفتن والمنازعات في تلك المناطق التي منحت له.

وكان ذلك وضع رؤساء عشائر الأكراد أيضاً، فقد منحت الدولة العثمانية لكل واحد منهم حسب قوته، وقوة عشيرته وامتدادها، إقطاعات من الأراضي الواسعة. وقد استوجب ذلك منهم الاستقرار في تلك الناطق، فتحول أولئك من رؤساء عشائر بدوية إلى إقطاعيين ومالكين للأراضي رويداً رويداً، وتحولت خيام العشيرة إلى بيوت وقرى، وتحول قسم كبير من المراعي إلى أراض زراعية، أما أبناء العشيرة فقد تحولوا إلى فلاحين يزرعون الأرض، ويضيفون غلتها إلى منتوج الرعي. صحيح أن قطعان الماشية بقيت، وبقي من يرعاها متجولاً في أنحاء الأرض، ولكن القسم الأعظم استقر وتحول إلى فلاح زراعي مع احتفاظه ببعض الماشية للاستفادة من حليبها وصوفها وشعرها وجلدها.

إن الحاكم الآمر في هذا الشكل الاجتماعي الجديد، كان رئيس العشيرة الذي أصبح الآن الإقطاعي الذي يملك تلك القرى وأراضيها ويأتمر كل الفلاحين بأمره ويعملون في أراضيه. أصبح الفلاحون يعملون في تلك الأراضي أجراء بل شبه أرقاء، لهم حصة ضئيلة من المنتوج. وهكذا ساد النظام الإقطاعي في جبل الكرد، حيث لم تكن عفرين ـ المدينة ـ

موجودة بعد، وتوزعت السيطرة على تلك المناطق الشاسعة بضع عائلات إقطاعية: شيخ إسماعيل زاده... سيدو ميمي... الكنج وغيرهم، وأصبح الحل والربط في كل أمر من الأمور بيدهم، وأصبح نفوذهم في مناطق سيطرتهم أقوى من نفوذ الدولة. بل نستطيع أن نقول إن الدولة كانت تعتمد عليهم في حل شؤون الناس، وأمورهم. كان في مركز نفوذ كل إقطاعي محكمته الخاصة وسجنه ورجاله الذين ينفذون بكل دقة أوامره. كان ذلك الإقطاعي يساعد الدولة في تسيير كثير من أمورها.

ظل النظام الإقطاعي سائداً في مناطقنا حتى الستينيات، حين بدأ الإصلاح الزراعي، وغيره من القرارات تحطم الملكية الواسعة الشاسعة للإقطاع.

التجربة الكبيرة التي مر بها النظام الإقطاعي في منطقة عفرين، وخرج من معركتها الاجتماعية، والسياسية والعسكرية، منتصراً كانت مع المريدين. فحين انتهت الحرب العالمية الأولى، ونشأت الدولة التركية الحديثة بحدودها الحالية، وانقسمت مناطق الأكراد بين سورية المنتدبة من قبل فرنسا، وبين تركيا، طمعت تركيا بضم منطقة جبل الأكراد إليها، وخططت لذلك كثيراً، وقد أرسلت لتلك المهمة رجلاً ــ كان ضابطاً في الجيش التركي ـ بصفة رجل دين، واسمه إبراهيم خليل. وقد استطاع هذا بذكائه وحنكته، وتأثيره الديني، أن يجمع حوله أعداداً هائلة من الأكراد الذين نظروا إليه على أنه الرجل الأمين المصلح، الذي أرسله الله لهم للم شمل الأكراد وهدايتهم إلى الطريق القويم. سمّي أتباعه بالمريدين، وكانوا يلبسون الثياب البيضاء، ويطلقون لحاهم، ولايهملون فرضاً من فروض الإسلام. وقد استغل إبراهيم تلك العاطفة الدينية، فأنشأ لهم مراكز للتدريب على السلاح في القرى التي تسمى الآن (ميْدانا) أو الميادين، وماتزال آثار ساحات تدريبهم باقية حتى الآن، وأمدهم بالذخيرة والسلاح من تركيا. وهناك أخبار تدل على أنه كان على صلة بالثائر إبراهيم هنانو، وأنه كان يمده بالسلاح والذخيرة أيضاً. لقد وجّه إبراهيم خليل هؤلاء المدربين المسلحين لمقاومة الجيش الفرنسي وفرنسا التي كانت تحكم سورية. وقد انحاز

الإقطاعيون في تلك الظروف إلى جانب فرنسا لأن فرنسا هي الحاكم الأول ومنها يستمد الإقطاعيون نفوذهم، ولأن المريدين ادعوا بأنهم المدافعون عن الفلاحين الفقراء والمناصرون لهم. ولذلك فإن معظم المعارك كانت تدور بين المريدين والإقطاعيين، وكان المدعو كور رشيد يشكل من بين الإقطاعيين العدو اللدود لهم.

حين تم جلاء الفرنسيين عن سورية، كان المريدون قد لفظوا أنفاسهم الأخيرة، وقد اختفى قائدهم إبراهيم خليل في ظروف غامضة، ليظهر بعد ذلك في تركيا، وقتل قائدهم المحلي (شيخ حنيف) على يد الإقطاعيين. وحين استتب الأمر في سورية للوطنيين، كان إقطاعيو منطقة عفرين من مناصري ذلك الحكم الوطني، وقد توزعوا بين الحزبين الرئيسيين في ذلك الوقت: الحزب الوطني، وحزب الشعب.

في بداية الخمسينيات، وبعد الانتصارات العظيمة للاتحاد السوفييتي على النازية والفاشية، وتشكل منظومة الدول الاشتراكية بدأت بعض الأحزاب الصغيرة القديمة والجديدة تلعب دوراً سياسياً ـ وإن كان صغيراً ـ في حياة سورية السياسية مثل الحزب الشيوعي السوري وحزب البعث العربي الاشتراكي. كانت سياسة هذين الحزبين مناهضة للإقطاع، داعية للاشتراكية وتوزيع الأراضي والتأميم، ولكن قوة هذين الحزبين كانت محدودة، وكان نفوذهما ينتشر بشكل خاص بين الفلاحين الفقراء وبعض المثقفين، كان الإقطاع ونظامه هما السائدين في الحياة الاجتماعية والسياسية، فمازالت القرى وأراضيها ملكاً للإقطاع، ومازال النفوذ الإقطاعي هو الأقوى عند الدولة وبين أبناء الشعب. كان الإقطاعيون يهاجمون هذين الحزبين بكل شراسة وبكل وسيلة. أذكر أن أحد الإقطاعيين طارد أحد المسؤولين في الحزب الشيوعي في منطقة عفرين بسيارته ليدهسه وينتهي منه. ولكن من المفارقات العجيبة أن التنافس كان يحتدم أحياناً كثيرة بين حزب البعث العربي الاشتراكي والحزب الشيوعي السوري ليصل إلى درجة العراك بالأيدي، كما حدث في مدينة عفرين.

كانت القصص التي تروى عن الإقطاعيين متناقضة، فإن كان مصدرها من مؤيدي

الحزبين الشيوعي والبعث، فتلك القصص مليئة بظلم الفلاحين والقسوة تجاههم. وإن كان مصدرها من مؤيدي الإقطاع، فهي مليئة بالنبل والشهامة والكرم.

في زيارة لي لصديق في إحدى القرى، وكان والده إقطاعياً، أراني صديقي سجن والده، والمضافة التي كان يستقبل فيها مؤيديه وضيوفه، أراني العلاّقات على الحيطان حيث كان رجاله يعلقون بنادقهم، وقد أشار صديقي إلى مخفر القرية قائلاً: كانت سلطة أبي تتجاوز المخفر. ومن كان فيه كان يحاول دائماً استرضاء أبي.

الانتخابات

في الخمسينات كانت الانتخابات تجري في منطقتنا بشكل دوري ديموقراطي، وكان الإقطاعيون بما لهم من نفوذ، هم الناجحون دائماً. وإذا أردت أن أوضح صورة الحزبين السائدين في سورية ونفوذهما، وهما حزب الشعب والحزب الوطني، فإنني أقارنهما بالحزبين اللذين يتداولان السلطة في بريطانيا (حزب المحافظين وحزب العمال) أو بالحزبين اللذين يتداولان السلطة في الولايات المتحدة الأمريكية (الحزب الجمهوري والحزب الديموقراطي).

كان لمنطقة عفرين أربعة مندوبين إلى مجلس النواب، وكانت أيام الانتخابات وما قبلها مهرجانات تتحول عفرين وقراها فيها إلى خلايا نحل، فلا ترى إلا السيارات، وهي غادية رائحة محشوة بالبشر. هذا يدعو للقائمة الفلانية، وذاك يدعو للقائمة الأخرى، وكلما اقترب موعد الانتخابات، ازداد الحماس أكثر. الإقطاعيون كانوا يشتركون في قوائم متنافسة مؤيدة لحزب الشعب أو للحزب الوطني، هذا عدا التنافس بينهم وبين مرشحي حزب البعث العربي الاشتراكي أوالحزب الشيوعي السوري .

في عفرين في مركز المنطقة كان التنافس يصل إلى ذروته، فهي مركز القرى ومركز الانتخاب. كانت الصور واللافتات تملأ واجهات المحلات، ولايكل المرشحون عن التجوال في جميع القرى لجلب المؤيدين والمناصرين لقوائمهم. أذكر صورة لفائق آغا، وقد عاد من

جولة في ناحية جند يرس. وقفنا عند سيارته الحديثة (بويك) لنسمع إشاعة عن سيارته القوية الجبارة، مفادها: أن سائقها استطاع أن يقفز بها من فوق طريق محفور لإعاقته وإيقافه. ضغط السائق بقوة على دواسة البنزين، ثم أطلق السيارة لتقفز، فقفزت. هكذا كانت تروى الشائعات لنا نحن الصغار فنصدقها ونرويها.

الصورة الجميلة عن يوم انتخابي ديموقراطي كانت تلك التي شهدتها في عفرين. المشهد جرى أمام السراي، وعلى طريق راجو، وأمام دكان مصطفى جمو. كان داعية الإقطاعيين واقفاً على سطح سيارة باص (بوسطة)، وهو يعلو بصوته داعياً لمرشحيه الإقطاعيين. أما أمام دكان مصطفى جمو بائع الطوابع فقد وضع الشيوعيون طاولة أصعدوا عليها داعيتهم، وهو الأستاذ عدنان قره جولي، وكان معلما في عفرين ثم أصبح محامياً، وهو من أكراد حي الأكراد في دمشق. كان صغير الحجم قصيراً، ولكنه كان داعية عجيباً. كان يصرخ مؤيداً الشيوعيين، ناقداً الإقطاعيين وظلمهم. طبعاً النتيجة بعد الانتخابات كانت فوز قائمة حزب الشعب أو الحزب الوطني. آخر أربعة نجحوا عن منطقة عفرين كان في عام ١٩٥٤ على ما أعتقد، أذكر أسماء ثلاثة منهم: أحمد شيخ إسماعيل زاده (زمجي)، فائق آغا، عزت مستكي.

كانت تشوب هذه الانتخابات الخوّات، وشراء بعض الأصوات، واستخراج الهويات للانتخاب من قبل المرشح لمن ليس له هوية. وكثيراًماكان يذهب أحد مؤيدي الإقطاعي إلى قرية من القرى فيملأ السيارة الكميون بالناس ويحضرهم إلى عفرن للانتخاب. ولكن بشكل عام كانت الانتخابات ديموقراطية.

من الإصلاحات التي اقترحها النائب (زمجي) لمنطقة عفرين، وتمت الموافقة عليها هي منع تربية الماعز في منطقة عفرين الحراجية. ومازال ذلك القانون سائداً حتى يومنا هذا، ولعل ذلك قد أنقذ البقية الباقية من غاباتنا.

رمضان والعيد في عفرين

كان لرمضان في عفرين عندنا نحن الصغار، نكهة خاصة ممتعة، تهز أعماق مشاعرنا. كنا ننتظر قدوم ذلك الشهر بفارغ الصبر، فكل شيء سيتغير في رمضان: يلغى الفطور والغداء والعشاء ويحل بدلاً منها وقتان للطعام: الإفطار في المغرب، وتناول الطعام في السحور. كنا نرجو أمهاتنا، ونستحلفهن لكي يوقظننا وقت السحور لنبدأ الصيام معهم. كنا نستيقظ ونتسحر، ولكن كل قوتنا وصبرنا على الجوع كان ينفد قبل الظهر، أوبعده بقليل، فتنظر الأمهات إلينا، ويشفقن على حركتنا البطيئة وجوعنا، فيقدمن إلينا الطعام، نمانع قليلاًولكننا لانلبث أن نقبل عليه بكل شهية.

كان لإعلان موعد الإفطار مدفع صغير يحشى بالبارود والورق، ويشعل لينفجر محدثاً دوياً هائلاً. لم يكن مدفعاً في شكله، ولكن في صوته، كان اسطوانة فولاذية طولها نحو نصف متر، وكان حين ينفجر يقفز من مكانه خطوة أوخطوتين. كان المدفع يُنْصَب على أرض البازار، قبل موعد الإفطار بقليل، وكنا نتجمع حوله مشكلين مظاهرة طفولية، وما أن يدوي صوت المدفع حتى نجري راكضين نحو بيوتنا، لنشارك الأهل في وجبة الإفطار بالإضافة إلى وجباتنا النهارية، ورغم أن إيقاظنا في وقت السحور كان مزعجاً لنا وللأهل، فقد كنا نصر على أن نستيقظ، وكم كان الأهل يتعبون في تنبيه تلك الأجساد الصغيرة، وإزاحة الخدر منها، ومسح النعاس الراقد على الأعين.

في رمضان كانت الأم ومعها البنات ينشغلن بتحضير وجبات الإفطار، وقل ما كنا نذهب في رمضان إلى البستان، وإن ذهبنا فإننا نعود بسرعة، وفي الأيام التي كنا ننام فيها في البستان، كان الإفطار في البرية وسط الأشجار والخضرة يكتسب سحراًخاصاً لانظير له.

في عفرين المدينة كان الجميع يتبادلون الأطعمة قبل الإفطار، فإن سكبت الجارة اليوم لجارتها، فلابد أن تسكب الأخرى لجارتها في اليوم الثاني، وكثيراً ما كان الجيران يدعو بعضهم بعضاً، لتناول وجبة الإفطار وخاصة إذا كانوا من الأقارب أو من الأصدقاء الودودين.

ختام رمضان عيد الفطر، كان فرحة لنا وللكبار أيضاً، ولكن لنا كانت الفرحة أكبر بكثير، فالثياب والأحذية الجديدة، وكل شيء جديد كان في ذلك العيد. القمباز والتا سومة الحمراء، والفرنكات في كل يوم من أيام العيد، والأطعمة المتنوعة، كانت كلها تكوّن عالماً سحرياً خاصاً مذهلاً.

أهم الألعاب التي أتذكرها في عفرين في العيد، كانت الأراجيح، وكانت كبيرة تسع أطفالاً عدة، وأذكر من الأهزوجات التي كنا نرددها، ونحن في الأراجيح بصوت عال وبفرحة لاتوصف: ياحج محمد، ويصيحه قسم من الأطفال، فيرد الباقون في جوقة واحدة: يو... يو. يصيح الأولون: عطيني حصانك ، فيرد الآخرون: يو... يو. لأشد وأركب ـ يو... يو. اسكندر مات ـ يو... يو. خلّف بنات ـ يو... يو. بناته سود ـ يو... يو. متل القرود ـ يو.... يو.

واجهات الدكاكين كانت تمتلئ بالبسطات التي عليها كل أنواع السكاكر، والقضامة بسكر، والملبس والكر ميلا. بفرنك واحد كنت تستطيع أن تشتري ماتشاء منها. لم نكن نأتي إلى البيت إلاّ لنملأ بطناً أو جيباً فارغاً، وكانت حمى العيد تجعلنا متوترين مسرعين، موردي الخدود، معروقي الأجساد، نخاطب الأهل بانفعال ممزوج بفرح لايوصف، وكا ن الأهل يقدرون أن هذا العيد لنا بالدرجة الأولى، فهو عيد الصغار وفرحهم. كان مايملأ قلوبنا سعادة أن هذا العيد قد دخل كل بيت، ومس كل أسرة، فالكل قد مسحته كف العيد السعيد، فتركت عليه آثاراً من ثياب جديدة، وحركة وفرح وابتسامات. لم يكن بيتنا يفرغ من الزوار في تلك الأيام الثلاثة، مباركين بذلك العيد، قادمين من الجوار، أو من القرى. الوالد كان يتخذ للعيد أهبته، فيصبغ شاربيه وشعره، ويلبس قلبقه الجديد (قبعة)، ويبخ بنطاله بالماء في ليلة العيد ويضعه تحت الطراحة ليكوى، ولاينسى أن يصبغ الحذاء ويلبس جرابات جديدة.

خسوف القمر

لم يكن خسوف القمر في عفرين في الخمسينيات، مرتبطاً بالعلم، أو بأن الأرض

توسطت بين الشمس والقمر. لا بل كان مرتبطاً بالحو ت. ففي تلك الليلة يخرج الحوت من البحر، ويبدأ بالتهام القمر. أما كيف يخرج الحوت فنتركه للأسطورة، الناس جميعاً يحبون القمر أكثر من الحوت: فالقمر يضيء بنوره الأرض، ويملأ قلوب الناس في ليالي الصيف بالحب والرضا، ويتلون في السماء بأشكال يتفنن بإظهارها، فمن محاق إلى هلال إلى بدر، ومن بدر إلى هلال، مرة في الغرب، ومرة في الشرق. إنه صديق الإنسان وأنيسه. أما الحوت فإن اسمه يوحي بالبلع والرعب، لذلك فإن معظم سكان عفرين كانوا يخرجون في ليلة الخسوف إلى الشوارع، الكبار منهم يطلق الرصاص على الحوت ليفلت القمر من بين فكيه، والصغار يقرعون بالحجارة صفائح أو تنكات مصدرين صوتاً قويا يزعج الحوت ويخيفه، فيهرب إلى البحر ويطلق القمر.

كان الناس يعتقدون أن القمر مثلهم يحس ويتألم، ويعيش حياته، فيختفي أحياناً لشأن له، ويظهر في أيام أخرى ليعيش معنا. كان القمر يمثل الخير والسعادة للبشر، والحوت يمثل الشر والطغيان، لذلك فقد كنا جميعاً مع القمر، وحين يظهر القمر في الليلة التالية في السماء صافياً، دون أن تشوبه صفرة الموت والخوف، كنا نفرح لنجاته، ونظن أننا حقاً قد أنقذناه من أسنان الحوت.

الأغاني وتسجيلها للأحداث

كانت الأغاني في عفرين في معظمها سجلاً لأبنائها، يسطرون فيها أحداثهم، ويعبرون عن عواطفهم، حتى أحداث العوالم البعيدة عن عالمهم، كانت تجد لها صدى في تلك الأغاني. معظم الأغاني كانت عاطفية تحوم حول القلب ونار العشق، ومعاناة من اكتوى بناره. أحياناً يكون للأغنية اسم تدور الكلمات والمعاني حوله: اسم شاب، أو اسم فتاة، (والله حمو تو ديني ـ أخ لولولو توسنو)، وقد يكون بطل الأغنية مجموعة من الفتيات والشابات الجميلات ذوات اللون البرونزي، من بنات القرية (زربي غوندي ما ششن)، أو تكون البطلة زينب التي شغلت بجمالهاوعشقها كل من عاش بقريتها، وأصبحت حديث الناس يلهجون

بذكرها، حتى إن مؤذن المسجد حين صعد للمنارة ليؤذن، نسي الآذان، فصاح: زينب زينب.

في أغنية من الأغاني تُعجب المحبوبة بحركات محبوبها ، وخفة دمه، فتسمي المحبوب (رشكو): أمّان رشكو تا ناكم، سور وسبّي لي خاناكم (لن أتزوجك يارشكو، لن ألبس الأحمر والأبيض).

وكانت تلك الأغاني تتضمن أحياناً بعض الوصف والتصوير الخارق. في أغنية لجميل هورو يصف فيها جمال المحبوبة وبياضها ونعومة جلدها وشفافيته، تظهر حبة الزبيب في عنقها إذا أكلتها تلك الجميلة ، وذلك لشدة رقة جلدها. في أغنية أخرى للمطرب نفسه يقتبس من القرآن، حين يصف صدرها الجميل الواسع (ألم نشرح لك صدرك).

حين بدأ الرجال بخلع القبعة المثقوبة المصنوعة من التنتنا، هاجمت أغنية من الأغاني أولئك الذين خلعوا تلك القبعة وتخلوا عن زيهم الشعبي. وحين فاض نهر عفرين، وحمل معه الركام والخشب، سجلت الأغنية ذلك: عفرين هاتي خمّو وخشّا، بي سار كاتي قرمو وقرشا.

بعض الأغاني سجلت أحداثاً بعيدة عن عالم عفرين، وما يحيط بها، فقد ورد في أغنية من الأغاني اسم القلعة التي سقطت بيد الفيتناميين بقيادة الجنرال جياب والقائد هوشي مينه، وهي قلعة ديان بيان فو. وورد في أغنية أخرى ذكر لبطولة الكوريين المدافعين عن أرضهم. كان ذلك لأن تلك الأغاني كانت تعبر عما يعتلج في ضمير الناس من حب للوطن والحق والحياة.

طبعاً حين نتحدث عن تلك الأغاني، لا يمكن أن ننسى تلك الهدهدات الناعمة التي كانت تدندن بها الأمهات لصغارهن قبل نومهن في تلك المهود الخشبية، وبعد ذلك المعدنية.

المقالع

حسب الروايات، إن المقلع الحجري الأول لعفرين كان يقع وسط عفرين حيث تنحدر هضبة عفرين باتجاه النهر شرقاً، وبالضبط شمال بيت صبري بطال، وعبد الودود كردي، وكان يظهر آثار مقلع آخر غرب عفرين، شرق طريق راجو، قرب بيت علي قلندر،

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

وبيت كومر أي جنوب المدرسة الريفية الحالية. حين كنت طفلاً كان العمل في هذين المقلعين قد توقف منذ زمن بعيد، وأحاطت بهما البيوت المعمورة. المقلع الجديد الذي عايشته كان يقع في الجنوب الشرقي من قرية تل طويل، على الطريق الذاهب إلى قرية آستير وجبل حنة ومحطة عفرين للقطار (محطة قرط قلاق). هذا المقلع كنت أمر به صباح مساء، في ذهابي إلى البستان مع أهلي، وغدوي معهم إلى البيت. أحياناً كنت أقف على حافة فجوته، فأستغرب كيف استطاع الإنسان أن يحفر هذه الفجوة العظيمة في الصخر بوسائل بدائية جداً. من هذا المقلع كانت تصدر الحجارة الكلسية البيضاء إلى مدينة عفرين لتعمر بها بيوتها، فتمتلئ أرضها بالبناء والبشر. أجمل ما أتذكره عن ذلك المقلع صياح مفجر البارود: بارود... اهربوا... بارود... بارود. حين كنا نسمع ذلك الصوت، في طريقنا إلى بستاننا كنا نغيّر طريقنا، فنترك الطريق العلوي ـ طريق المقلع ـ إلى طريق يمر شرق الطريق السابق أسفل قرية تل طويل، وكنا أحياناً نسمع صوت الانفجار، ونرى الحجارة الكبيرة والصغيرة وهي تتطاير في الفضاء.

كان مفجر البارود أو الملغّم ينقر بواسطة (مخل) قضيب معدني مدبب حاد في أحد طرفيه، حفرة عميقة في الصخر لا يتجاوز قطرها بضعة سنتمترات (قطر القضيب). أما عمقها فكان يمتد عميقاً في الصخر. بعد الانتهاء من الحفرة كانت تملأ بالبارود، ويمد داخل البارود فتيل ينتهي ب (كبسون) مفجّر. يمد الفتيل إلى خارج الحفرة بمسافة ما، يشعل العامل رأس الفتيل بلهب سيجارة، أو غير ذلك، فينبعث دخان من الفتيل. يركض العامل هارباً مسافة لابأ س بها قبل أن ينفجر الديناميت (البارود) محطماً الجبل إلى كتل صخرية منفصلة، قاذفاً بالحجارة الصغيرة إلى مسافات بعيدة. كان ذلك الصوت، وذلك الانفجار، وذلك الرجل الهارب من باروده، يستوقفنا إلى أن ينتهي الحدث، ويعود العامل إلى ما فجّره. أحياناً كان التفجير يفشل لرطوبة البارود أو رطوبة الفتيل، فيعيد العامل الكرّة إلى أن يحقق مأربه.

بعد انقسام الصخر إلى كتل كبيرة يأتي دور الحجّار، ليشكل تلك الصخور الكبيرة حجارة متناسقة، لها طول وعرض، وسماكة معينة، لتنقل بعد ذلك إلى محيط الدار التي ستبنى، فتدخل في بنيانه. حين لم يكن هناك تفجير ـ وكان التفجير يحدث كل بضعة أيام ـ كنا نسلك طريق المقلع في طريقنا إلى البستان، فنرى ذلك الحجّار ـ وقد ملأ البياض كل جزء من ثيابه وجسمه ـ منكباً على تلك الحجارة بأدوات كثيرة، منها ماتنعّمه، ومنها ماتمشّطه، ومنها ماتزيل الأجزاء التي لاتناسب البناء.

على كتف ذلك المقلع شاهدت مرة ونحن ذاهبون إلى البستان، تمريناً على الرمي الحقيقي يقوم به رجال الدرك من مخفر عفرين. كانت الدرايئ صفائح التنك الفارغة بعد استعمالها للبنزين أو الكاز.

من أي مقلع بنيت دارنا؟ هل من المقلع القديم في وسط عفرين أم من المقلع الجديد؟ لاأدري، ولكني أدري أنني ولدت في تلك الدار.

في الزمن الذي أتحدث عنه، لم يكن مقلع عرش قيبار معروفاً، ولم يكن إلا القرية والماء الذي ينحدر من نبعة في أسفل القرية، جارياً نحو نهر عفرين الحبيب.

السينما

السينما الأولى والأخيرة في عفرين أقيمت في الخان الذي يقع شرق باحة البازار القديم، في نفس الخان الذي شاهدنا فيه ـ نحن الأطفال ـ أسرة الضباع: الضبع والضبعة وجرويهما. لم يكن البناء يصلح للسينما، ولكنه أعد لذلك: باحة الخان صفت فيه الكراسي، وعلى الجدار الضيق نصبت شاشة بيضاء، وفي الجدار المقابل نصبت آلات العرض. كانت سينما بدائية بسيطة، ولكنها كانت سينما على كل حال. أتذكر أنه كان للسينما على باب الخان مكبر للصوت تصدح فيه الأغاني، داعية بموسيقاها الناس لارتياد تلك السينما. أذكر كلمات أغنية منها لمطربة لاأعرف اسمها: مابنعني لبالك كبار كبار، يل كوّنك ربك على فضلي، والعمر يا مغرور دولاب عم يدور.

قبل تلك السينما، كانت تأتي إلى عفرين سيارة فيها سينما متنقلة، أعتقد أنها كانت تابعة لوزارة الزراعة أو الصحة، فقد كانت معظم الأفلام التي تعرض فيها إرشادية زراعية أو صحية. حين جاءت تلك السينما إلى عفرين أول مرة كانت عجبة العجائب. كانت السيارة تقف مقابل جدار أو حائط منزل، وتبدأ آلات العرض فترتسم على الجدار صور لأناس حقيقيين من البشر، يتحركون ويتكلمون ويغنون، مثلنا تماماً، وكنا أحياناً نمد أيدينا خلسة إلى الجدار، لعلنا نلمس أحدهم، أونمسك بثيابه، ولكن حجر الجدار أو الحائط كان هو الذي يلمس أصابعنا المرتبكة المتوجسة. وأحياناً نمد أيدينا وسط الأشعة المنبعثة من آلة العرض، فترتسم أصابعنا الخمسة وكفّنا سوداء على الجدار، فيصيح عامل السينما، فنعود من جديد للجلوس بجانب السيارة نتابع الفرجة على الفيلم.

أبو ناصر السواس

أبو ناصر بائع السوس، كان من حلب أو من ريفها، كان معروفاً من كل أبناء عفرين، بل من كل أبناء قرى عفرين، كان يعدد أسماء تلك القرى عن ظهر قلب، وبسرعة عجيبة. يبدأ بأول قرية في طريق ما، منتهياً إلى آخر قرية، ثم يبدأ بطريق آخر وقرى أخرى. كان يزور تلك القرى بعرق سوسه فيشرب الجميع. وفي المواسم يعود إلى تلك القرى، ليأخذ مايعطونه. أما عفرين فكانت مدينته ومركز عمله. لايمكن لأي إنسان في عفرين إلا أن يشرب من سوسه كانت قرعات طاساته ذات الألحان الجميلة، تنبئ بمجيئه، وتملأ القلب فرحاً، فالسوس البارد سيسري في ثنايا الجسم.

لم يكن بيته بعيداً عن دارنا. بعد حارتنا بحارة واحدة (حارتنا هي الحارة التي فيها الآن بيت الأستاذ فاضل مصطفى النعسان). كنت أذهب أحياناً إلى دارهم لزيارة ابنهم ناصر صديقي. أرض الدار كانت مليئة بجذور نبات السوس، تلك الجذور التي كانت تنقع بالماء أياماً ليتحول الماء بعد ذلك إلى لون مائل للسواد، إنه خميرة السوس، كان أبو ناصر يمزج المنقوع بالماء بمقاديرمحددة، لنشرب بعد ذلك سوساً طيب المذاق، رائعاً، دالاً على أن أبا ناصرمعلم بلا منازع.

في مناسبتين كان اسم أبو ناصر يتردد على الألسن أكثر من كل الأسماء. في البازار حيث كان يطرب بقرعات طاساته أذن سامعيه، ويطفئ ببرودة سوسه غليل شاربيه. إن أعطوه مالاً أخذ، وإن لم يعطوه لايطلب فسيعطونه بعد حين. ثم في رمضان. كان في رمضان يدور بيوت عفرين كلها قبل الإفطار، ليصب لهم في أوانيهم من ذلك الرائق اللذيذ.

خبز الساج (السيل)

كان ذلك الخبز هو المنتشر في عفرين وقراها جميعاً. كانت كل أسرة تحتفظ بقسم من الحنطة (القمح) للخبز، وكانوا يسمون ذلك ذخيرة. وحين تحتاج للخبز كانت الأسرة تذهب بكيس القمح إلى الطاحونة المائية لطحنها. وذلك قبل أن تبنى الطاحونة النارية في عفرين. فبعد بنائها عزفوا عن الطاحونة المائية. لبعدها عن عفرين ووقوعها بين المزارع والبساتين حيث المياه والسواقي. ولأن معظمها لم يكن يعمل إلا في الشتاء حيث تتوقف السقاية وتنقلب المياه إلى الطواحين إلا ما كان منها واقعاً على نهر عفرين فكانت تعمل صيفاً وشتاء. في الطاحون يتحول القمح إلى دقيق لصنع الخبز. كانت المرأة الكردية مثلها مثل كل نساء الريف في ذلك الزمان تصنع العجين من ذلك الدقيق. ولكن في منطقة عفرين وقراها كانت المرأة تخبزه بدون خميرة. كان لابد لها من الاستيقاظ قبل شروق الشمس ــ وخاصة في أيام الصيف ـ لتهيئ العجين. ثم تخبزه على النار الموقدة تحت (الساج)* تقرّص العجين أوّلاً أقراصاً في الطست ثم ترققها على خشبة مستطيلة مرتفعة قليلاً عن الأرض حيث تدخل ركبتاها تحتها وهي جالسة تخبز وترقق. كان الترقيق يتم بواسطة عصاة مدورة طويلة مع نثر الطحين بين الحين والآخر، حتى تتماسك الرقاقة . ثم تلف الرقاقة على العصاة، وتفرد على الساج الحامي، فيبدأ الرغيف بالنضج. فيقلب عدة مرات،

---

* الساج: وعاء معدني مقعر سميك، يوضع مقلوباً فوق النار على منصب معدني ثلاثي القوائم، أو على حجارة، لتمد فوقه الرقاقة.

ويوضع على طبق من القش (تَبك) ليبرد. يعد الانتهاء من الخبز، ترش المرأة بضع نقط من الماء، على كل رغيف، ثم تطويه طياً متقناً، فيبدو كأنه كتاب أو دفتر . يوضع ذلك الخبز في سلة خشبية ، أو يلف بقماش ليبقى يوماً أو عدة أيام ، طريا طازجاً.

لم يكن بمقدور امرأة وحدها أن تقوم بعملية الخبز، ولابد من امرأة مساعدة للا هتمام بالرغيف فوق الساج، وتقليبه بالشيش حتى ينضج، وترتيبه ووضعه في الطبق القشي. كان الدور الأول لمن تعجن وتقرّص، وترقق. كانت المرأة التي تقوم بدورها بشكل جيد في الخبز والغسيل والطبخ والجلي، مضرب المثل، والمميزة من بين النساء الأخريات. فحين يود ضرب المثل بمهارة امرأة ما أو فتاة، يقال: إنها أفرغت طشتاً من العجين، وخبزته قبل أن تحمى الشمس، وترتفع في السماء.

حين أصبحت الدولة مسيطرة على القمح، والمسؤولة عن الدقيق وتوزيعه، انتشرت الأفران في قرى عفرين، فانتهت المرأة الكردية من عناء خبز الساج، وتحولت إلى الفرن لتأمين خبز أسرتها.

المراجع:

١- جبل الكرد: د محمد عبدو علي.

٢- جبل ليلون: مروان بركات.

٣- اليزيدية واليزيديون: د. خلف الجراد.

٤- نحو معرفة حقيقة الديانة الإيزيدية: د. خليل جندي.

٥- اليزيدية: سعيد الديوه جي.

٦- مجلة الحوار.

٧- مقابلة مع السيد عبد الودود (ودو) المصوّر.

٨- مقابلة مع الأستاذ سيدو مصطفى.

٩- مقابلة مع السيد محمد سعيد فياض آغا.

١٠- مقابلة مع السيد فوزي حمو.

نبذة عن المؤلف

- من مواليد عفرين عام ١٩٤٢.
- درس الابتدائية في عفرين والإعدادية والثانوية في القنيطرة.
- تخرّج في جامعة دمشق ـ كلية الأداب والعلوم الإنسانية ـ قسم اللغة العربية عام ١٩٦٧.
- عمل مدرّساً في ثانويات حلب ومدارسها.
- ينشر في الدوريات المحلية والعربية.
- هاتف: ٠٠٩٦٣٢١٢٢٧٢٩٠١
- خليوي: ٠٠٩٦٣٩٣٣٥٠٣٦٠٩
- Emai: joma@maktoob.com

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com

إصـــدارات

	اسم الكتاب	مادة الكتاب	المؤلف	العام
١	حلب بورتريه بألوان معتّقة	قصص	وليد إخلاصي	٢٠٠٦
٢	دراسات في الحضارة العربية الإسلامية	دراسة	د. فؤاد المرعي	٢٠٠٦
٣	البنية الجمالية في الفكر العربي/الإسلامي	دراسة	د. سعد الدين كليب	٢٠٠٦
٤	إمبراطورية المجانين الديمقراطية العليا	قصص	خطيب بدلة	٢٠٠٦
٥	ما تبقى من الورد	شعر	طه حسين الرحل	٢٠٠٧
٦	الصفة معتقل سياسي	قصص	محمد كامل مسقاني	٢٠٠٧
٧	ملامح من المشهد القصصي والروائي في الكويت	نقد	نذير جعفر	٢٠٠٧
٨	رؤيا هند	رواية	د. حسان الرهونجي	٢٠٠٧
٩	الصبابة المغربية	نصوص	سرغون . ت.س	٢٠٠٧
١٠	من التخييل إلى التأويل	دراسة	د. نضال الصالح	٢٠٠٧
١١	سيكولوجية المراهقة	دراسة	د. ناظم الطحان	٢٠٠٧
١٢	حب بعد الخمسين	قصص	خطيب بدلة	٢٠٠٨
١٣	ينابيع الحياة	قصص	إياد محفوظ	٢٠٠٨
١٤	باب الجمر	رواية	وليد إخلاصي	٢٠٠٨
١٥	تحت سقف واطئ	رواية	نذير جعفر	٢٠٠٨
١٦	الوعي الجمالي عند العرب قبل الإسلام	دراسة	د. فؤاد المرعي	٢٠٠٨
١٧	فوق... تحت	قصص	بسّام الرمّال	٢٠٠٨
١٨	جبل السيدة	رواية	نيروز مالك	٢٠٠٨
١٩	الحركة الشيوعية السورية (الصعود والهبوط)	دراسة تاريخية	د. عبد الله حنّا	٢٠٠٨
٢٠	إسماعيل مظهر من الاشتراكية إلى الإسلام	دراسة	د. أيوب أبو دية	٢٠٠٨
٢١	العلمانية/ وجهات نظر	دراسة	يوسف سلامة ماهر الشريف عطية مسوح	٢٠٠٨
٢٢	التراجيدي في أساطير الشرق القديم	دراسة	عبد الرحمن العابو	٢٠٠٨
٢٣	الصيرفة/ بحوث وتطبيقات	دراسة	شاهين عكاب سالم	٢٠٠٨
٢٤	قرب البحيرة	قصص	هدى إبراهيم يونان	٢٠٠٨
٢٥	ثلاث تفاحات	رواية	محمد أبو معتوق	٢٠٠٨
٢٦	الصغيرة فادت	رواية لليافعين	وليد حسن حسو	٢٠٠٨
٢٧	الإمبريالية الأمريكية خصم تاريخي للحرية والديمقراطية	دراسة	د. مصطفى أمين	٢٠٠٨

٢٨	الماركسية والماركسيون في عصرنا/طاولة مستديرة	دراسة	مجموعة من المؤلفين	٢٠٠٨
٢٩	الوسواس الخفي	محكيّات	وليد إخلاصي	٢٠٠٨
٣٠	مطبّات للذاكرة	قصص	إبراهيم عوّاد خلف	٢٠٠٨
٣١	السكون بعد العاصفة	قصص	أحمد جدعان الشايب	٢٠٠٨
٣٢	ترانيم الهجرانيين والموتى	نصوص	واكيم أونجي	٢٠٠٨
٣٣	صهيل الصحراء وحمحمتها	دراسة نقدية	أحلام يحيى	٢٠٠٨
٣٤	هواجس الحنايا	شعر	مرشدة جاويش	٢٠٠٨
٣٥	مرايا التّلقي	نقد	نذير جعفر	٢٠٠٨
٣٦	لآلئ من بحور الحياة	نصوص منوّعة	رجاء أبو صالح	٢٠٠٨
٣٧	أشجان الدفلى	شعر	سعيد رجّو	٢٠٠٨
٣٨	شمسها سيدة الأوقات	شعر	سعيد رجّو	٢٠٠٨
٣٩	مملكة الجسد	شعر	صالح بوزان	٢٠٠٨
٤٠	ارتفاع أسعار النفط والغذاء/الأسباب والتداعيات	دراسة	زياد عربية	٢٠٠٨
٤١	أبداً كنت أنا	مذكرات	سعيد رجّو	٢٠٠٨
٤٢	أضمومة نار	شعر	سعيد رجّو	٢٠٠٨

E-Pirtûk
www.kurdme.com
www.all-kurd.com
www.kurdefrin.com